كليفـــورد لونجــلى

الشعــب المختــار

الأسطـــورة التى شـــكلت إنجـــلترا وأمـــريكا

ترجمة: دكتور قاسم عبده قاسم

الجزء الثانى



"إنشقاق" البحر الأحمر فى وقت الخروج من مصر

الشعب المختار

الجزء الثانى

الطبعـــة الأولى

١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م

مكتبة الشروق الدولية

ش الفتح . أبراج عثمان أمام الدريلاند . روكسي . القاهرة

تليفون وفاكس: ٤٥٤٤٤٦٧ ـ ٢٥٦٥٩٣٩ ـ تليفون ٤٥٣٦٢٤٨

Email: adel almoalem < shoroukintl @ Yahoo. com >

الشـــعب المخـــتار

أسطـــورة الفـــكر الأنجـــلو أمريـــكى

الجزء الثانى

كليفورد لونجلى

ترجمة: دكتور قاسم عبده قاسم

مكتبة الشروق الدولية

تصميم الغلاف : منى العيسوى

مُقدّمة

فكرة « الشعب المختار» يمكن أن تؤخذ على أنها تكليف ... تشحذ النفوس وتُعلى الهمم ... يتسامى بها " المختار" عن نقائص وعيوب البشر... ويضرب لهم المثل والقدوة ... كما فعل الأنبياء ومن تبعهم بإحسان ... بينما يأخذها البعض على أنها امتياز تجعله ينظر للآخر من علٍ ... فيُبطل بها المساواة ويلغى حقوق الآخر...

« أمـــا مدن الشعوب التى يهبها الرب إلهكم لكم ميراثًا فلا تستبقوا فيها نسمة حية، بل دمروها عن بكرة أبيها ».

(سفر التثنية، الإصحاح العشرون: ١٦-١٨)

وفـــى الجـــزء الحالى، يناقش المؤلف تلك الفكرة وتأثيرها على السياسة والـــتاريخ ... ومـــا أثارته من متناقضات وجدلية بين الآخذين بها ... فتارة تعتبر « الجماعة المختارة » أنها حلت محل أخرى؛ لأن الرب غضب على المخـــتارة الأولـــى ... وهذا « الاستبدال » أو « الحلول » أو « الإلغاء » للقديم يعرضه لكل أنواع التهم والاستبعاد ...

وتـــارة تعتبـــر الجماعـــة الجديدة أن شرعيتها من تمام شرعية القديمة، فتؤيدها بكل السبل والوسائل ...

فمـــثلاً مـــارتن لوثر، الذى أنشأ المذهب البروتستانتى فى أوائل القرن الســـادس عشر... أعاد للكتاب المقدس ــ بعهديه القديم والحديث ــ الأولوية فى المسيحية، فوق الكنيسة الكاثوليكية والبابا والتقاليد، وأعاد بالتالى الاعتبار لليهود وعمل بجدية لتحويلهم إلى المسيحية، فلما رفضوا، أصدر بيانه التالى فى كيفية معاملة اليهود:

« أولاً، إشــعال النيــران فـــى معابدهم أو مدارسهم ودفن ما لا يحترق وتغطيته بالتراب، بحيث لا يرى أحد مرة أخرى حجرًا أو رمادًا لهم ...

ثانــيًا، إننـــى أنصح بإزالة منازلهم أيضًا وتدميرها؛ لأنهم يتابعون فى داخلها نفس الأهداف التى يتابعونها فى معابدهم. وبدلاً من ذلك يمكن إسكانهم تحـــت سقف فى جرن، مثل الغجر. فإن هذا سوف يذكرهم بأنهم ليسوا سادة فى بلادنا، كما يتباهون، ولكنهم يعيشون فى المنفى والأسر، وأنهم باستمرار ينوحون ويحزنون علينا أمام الرب.

ثالــثًا، أنصـــح بأن كتب صلواتهم، وكتاباتهم التلمودية، التى فيها وثنية وأكاذيب، ولعنات وكفر يتم تعليمه، تنتزع منهم.

رابعًـــا، أنصـــح بمنع أحبارهم من التعليم منذ الآن فصاعدًا ومعاقبة من يخالف ذلك بالإعدام وقطع الأطراف... » .

وبصـــفة عامـــة، كانـــت مصر وفرعون فى التنميط البروتستانتى هى المعـــادل لأى طغـــيان، كمـــا كـــان بنو إسرائيل الاسم الذى يُطلق على أية مجموعة جديدة تقاوم الطغيان وتهرب منه...

فمصـــر هـــى رومـــا فى عيون البروتستانت فى قرونهم الأولى، وهى انجلترا بالنسبة للثوار الأمريكيين، وبهذا أمكن القول إن جورج واشنطون هو موســى. وقـــبل ذلك كان أوليفر كرومويل الثائر الإنجليزى على الملك هو موسى وكان الملك الإنجليزى هو فرعون.

وتأيدت العنصرية بقصة نوح مع ابنه حام، الذى رأى عرى أبيه، فلعن نوح كنعان ابن حام (وليس حام) ودعا أن يكون كنعان بن حام عبدًا لإخوته ..فمنذ اكتشاف أمريكا، وجد دعاة الرق والتفرقة العنصرية فى ذلك مرجعًا توراتـــيًا إلهيًا ... عندما نسبوا ــ بدون أساس مقبول ــ السود والزنوج إلى حـــام ... ربما بنفس المنطق الذى لعن فيه نوح كنعان وليس حـــام.

عـادل المعـلم

(٤)
الأمل والتاريخ والكراهية

استخدم التنميط البروتستانتى، الذى نركز انتباهنا عليه الآن، العهد القديم بطريقة أصلية . إذ كان تشخيصًا على الطريقة اليهودية، من حيث إن الشخصيات فى العهد القديم تم تجنيدها؛ لتخدم بوصفها أيقونات بروتستانتية جديدة - أى أوليفر كروموبل أو چورچ واشنطن (أو حتى هنرى الثامن) مثل موسى الذى يقود شعب الله المختار هربًا من العبودية إلى الأرض الموعودة، على سبيل المثال. كما أن البيوريتان فى انجلترا وفى نيو إنجلاند على السواء أغاروا على الشخصيات الدرامية فى العهد القديم لأخذ أسماء جديدة لأولادهم؛ وذلك تجنبًا لاستخدام أسماء القديسين (وهى تنتمى إلى العصور الوسطى ومغرقة فى كاثوليكيتها بشكل زائد). إذ إنهم أرادوا لأطفالهم أن تُسبغ عليهم فضائل الشخصيات التى اختاروها. وثمة وسيلة أخرى لتحقيق ذلك تمثلت ببساطة فى تسمية الطفل باسم الفضيلة، وحذف الاسم الأوسط - وهى آلية بيوريتانية شائعة فى تسمية الأطفال. وهكذا أضيف إلى معجم التسميات (للبنات أساسًا) أسماء مثل Prudence أى حصيفة، Faith إيمان، وGrace أى نعمة، وFelicity هناء، Verity حق، و Constance وفاء، وJoy فرح.

ولكن ما هو أشد خصوصية أنهم أغاروا على روايات العهد القديم - أى القصص القصيرة التى بنيت القصص الكبيرة عليها - ليجدوا متشابهات مع تجاربهم الخاصة ليس بهدف استخراج الدروس الأخلاقية فقط ولكن للتنبؤ بالمستقبل أيضًا؛ إذ إنهم آمنوا بشكل ثابت أن الكتاب المقدس يتحدث عنهم أساسًا، وليس عن القبائل القديمة فى فلسطين ابتداء. ولم يكن تاريخا، وإنما كان حكاية معاصرة ونبوءة، ولكن فى شكل تشخيصى أو مجازى كان يحتاج جهدًا كبيرًا للفهم. وهذه

طريقة مختلفة تمامًا فى تأمل الكتاب المقدس عن الطريقة الحديثة، حتى بين البروتستانت المحافظين، والتى تعيد الكتاب المقدس إلى التاريخ، وتعتبر أن التشابهات بين ذلك الزمان والآن مسألة مصادفة. وفى نيوإنجلاند القرن السابع عشر، كما كان الحال فى إيست إنجليا القرن السابع عشر، كانت إسرائيل هى الاسم الحقيقى للمكان الذى كانوا يعيشون فيه، كما كانوا هم الإسرائيليين فى نظر أنفسهم. ولا عجب فى أنهم أعطوا بعضهم بعضًا أسماء إسرائيلية.

وثمة توضيح جيد لعملية التفكير البروتستانتية الخارقة للعادة هذه يتمثل فى بداية أكثر المواعظ الكنسية الأمريكية شهرة، والتى تحمل عنوان «الخطاة بين يدى رب غاضب»، والتى ألقيت فى اينفيلد، بولاية كونكتيكت سنة ١٧٤١م، وألقاها چوناثان إدواردز (١٧٠٣ ـ ١٧٥٨م). وكان أحد المبشرين الرئيسيين الذين قادوا الصحوة الكبرى، وحركة إحياء الديانة الأنجليكانية فى فترة ما قبل الثورة والتوقعات الألفية فى نيو إنجلاند وغيرها من الأماكن فى العالم الجديد. (وكان ثمة إحياء مشابه يجرى فى الوقت نفسه فى انجلترا) وكانت خطبة إدواردز على النص الوارد فى سفر التثنية من الكتاب المقدس (تثنية، ٣٢: ٣٥) «لى النقمة والجزاء. فى وقت تزل أقدامهم»، وهو النص الذى يجلب إلى الذهن الصور المألوفة عن ساحات المزارع فى الشتاء والممرات الموحلة:

فى هذه الفقرة تهديد بانتقام الرب من الإسرائيليين غير المؤمنين الأشرار، الذين كانوا هم شعب الرب المرئى، والذين عاشوا فى وسائل الرحمة؛ ولكنهم بغض النظر عن أعمال الرب المدهشة تجاههم ظلوا بلا عقل ولا فهم. وتحت كل زراعات السماء زرعوا الثمار المرة والسامة؛ كما تقول الفقرتان التاليتان لهذه الفقرة التى أوردنا نصها. والتعبير الذى اخترته للنص، سوف تزل أقدامهم فى الوقت المناسب، يبدو أنه يتضمن الفعال التالية، التى تتعلق بالعقاب والتدمير الذى تعرض له هؤلاء الإسرائيليون الأشرار. . .

وهو يتضمن، أنهم كانوا على الدوام معرّضين لدمار مفاجئ وغير متوقع. مثل ذلك الذى يمشى فى أماكن زلقة وهو معرض فى كل لحظة للسقوط، ولا يستطيع أن يتنبأ لحظة واحدة ما إذا كان سيقف أو سيسقط فى اللحظة التالية؛ وعندما يسقط

فعلاً يسقط فى التو دونما تحذير، وهو ما تم التعبير عنه أيضًا فى المزامير (٧٣: ١٨، ١٩): «حقًا فى مزالق جعلتهم. أسقطتهم إلى البوار. كيف صاروا للخراب بغتة اضمحلوا فنوا من الدواهى».

وثمة شىء آخر متضمن هو، أنهم كانوا عرضة للسقوط بأنفسهم، دون أن تدفعهم إلى الأرض يد آخر؛ وكما أن ذلك الذى يقف على أرض زلقة لا يحتاج إلى شىء سوى ثقله لكى يقذف به إلى الأرض.

وكون السبب فى أنهم لم يسقطوا بالفعل، ولا يسقطوا الآن، هو أن الوقت الذى حدده الرب لم يحن بعد. لأنه يقال إنه حين يحين الوقت، أو يأتى الوقت المحدد، فإن قدمهم سوف تزل. ثم سوف يتركون؛ لكى يسقطوا حسبما يميل بهم ثقلهم. ولن يبقيهم الرب فى هذه الأماكن الزلقة أكثر من ذلك، ولكنه سوف يتركهم يذهبون: ثم فى هذه اللحظة نفسها سوف يسقطون فى الخراب، مثل ذلك الذى يقف على أرض زلقة متدهورة، على شفا حفرة، لا يمكن أن يقف بمفرده، وحين يتُرك يسقط فى الحال ويضيع.

والدرس المرعب الذى كان إدواردز يسوقه بالتدريج من خلال سلسلته الطويلة من الأمثال التى أخذها من العهد القديم هو أن مستمعيه يستحقون عقوبة دائمة، وأن رحمة الرب المحبة فقط هى التى منعت العدالة من أن تنفذ فى الحال. وعلى أى حال، فإن الأمثلة التى اقتبسها من العهد القديم قد أوضحت أيضا أن ذلك الذى تقبل رحمة الرب فى وقتها قد تم إنقاذه. وهكذا فإن العهد القديم قد أشار إلى كل من المشكلة وحلها. وكما تعامل الرب مع بنى إسرائيل القدماء فى الألف السابقة على المسيح، فإنه سوف يتعامل كذلك مع الأمريكيين فى القرن الثامن عشر، الإسرائيليين الجدد. وحين يسجل نص العهد القديم الرب يخاطب الإسرائيليين مؤنبًا بكلمة «أنتم»، فإن التنميط البروتستانتى يترجم ذلك على أنه مخاطبة جماعة المصلين هنا والآن والمجتمع الذى يمثلونه. وكان مطلوبًا من جماعة المصلين أن تقول لنفسها: إن كلمة «أنتم» فى العهد القديم هى كلمة «نحن» الآن.

ويبدو استخدام قوى آخر للتنميط البروتستانتى فى هذه الفقرة الأخيرة من موعظة إدواردز:

«حينما نهض الرب العظيم الغاضب ونفذ انتقامه الرهيب على الخاطئ المسكين، والشرير يعانى حقًا العبء الباهظ والقوة اللا محدودة لسخطه، فإن الرب حينئذ سوف يدعو الكون بأسره لكى يتأمل الجلالة الرهيبة والقوة العظيمة التى تشاهد فيه. إشعيا ٣٣: ١٢ - ١٤ «وتصير الشعوب وقود مكس أشواكًا مقطوعة تحرق بالنار. اسمعوا أيها البعيدون ما صنعت واعرفوا أيها القريبون بطشى. ارتعب فى صهيون الخطاة. أخذت الرعدة المنافقين. من منا يسكن فى نار آكلة. من منا يسكن فى وقائد أبدية» إلخ.

«وهكذا سيكون معكم أنتم يا من لم تؤمنوا، إذ ظللتم هكذا؛ فإن القوة اللانهائية، والجلالة ورهبة الرب القادر على كل شىء سوف تتعاظم عليكم، فى القوة التى لا توصف لعذاباتكم. وسوف تعذبون فى حضور كل الملائكة، وفى حضور الحَمَل (المسيح)؛ وعندما ستكونون فى هذه الحال من المعاناة، فإن سكان السماء المجيدين سوف يتقدمون وينظروا إلى المشهد الفظيع، حتى يرى مدى غضب الرب القوى وقسوته؛ وعندما يرون هذا، فإنهم سوف يخرون وقد خلبتهم تلك القوة العظيمة والجلالة. إشعيا (٦٦: ٢٣ - ٢٤) «ويكون من هلال إلى هلال ومن سبت إلى سبت أن كل ذى جسد يأتى ليسجد أمامى. قال الرب. ويخرجون ويرون جثث الناس الذين عصوا علىّ؛ لأن دودهم لايموت ونارهم لا تطفأ. ويكونون رذالة لكل ذى جسد». إنه غضب دائم إلى الأبد. وسيكون أمرًا مهولاً أن تعانوا هذه القسوة والغضب من الرب القوى العظيم لحظة واحدة؛ ولكن يجب أن تعانونه بشكل خالد. ولن تكون هناك نهاية لهذا البؤس المرعب المروع». . . [وهلم جرا].

وإذ جلد سامعيه بالمشهد الوشيك لنار جهنم شبه المؤكدة - عرف هذا النوع من المواعظ الكنسية باسم «تبشير الرعب» - قذف إدواردز إليهم بطوق النجاة الأخير:

« ولاشك الآن كما كان الحال زمن يوحنا المعمدان، فى أن الفأس قد وضعت عند جذور الأشجار بطريقة خارقة للعادة، وأن كل شجرة لا تثمر ثمرًا طيبًا سوف يتم اجتثاثها وتلقى فى النار. ومن ثم ليستيقظ كل من خرج على المسيح ويهرب الآن من نقمة آتية. ونقمة الرب العظيم لاشك فى أنها تحوم الآن فوق جزء كبير من هذا الجمع: ليهرب الجميع من سدوم. . . . ».

كان من المفترض أن الرب راض بأن يكرر نفسه . ومنذ ذلك الحين ، إذا حدث موقف فى الحياة اليومية مشابه لموقف تحدث عنه العهد القديم - مدينة سدوم الخاطئة ، مثلا - فإن الرب سيجعل العاقبة مشابهة أيضًا . وكما دمر الرب سدوم ، فإنه أيضا سوف يدمر المدن الخاطئة اليوم . وما ينطوى تحت ميثاق ما سوف ينطوى تحت ما يليه من مواثيق . وإذا كان شعب إسرائيل الجديد قد مكثوا فى مياه تشابه أو تساوى البحر الأحمر ، على حين يحثّ مطاردوهم الخطى خلفهم ، فإن الرب سوف يتدخل مرة أخرى (ربما بواسطة رياح شرقية قوية) لكى يقودهم عبره ويدمر أعداءهم . وكان تطبيق متشابهات العهد القديم شخصيا بدرجة أكبر كثيرا بحيث يعكس تأكيد البروتستانت على أن الرب يختار (ينتخب) الأفراد أكثر من (أو تماما مثل) اختياره للجماعات الكاملة . هذا التوتر بين الانتخاب الفردى والانتخاب الجماعى كان ملمحًا مستمراً من أشكال البروتستانتية المأخوذة عن المذهب الكالفينى . وعادة ما كان المبشرون لا يحاولون حل هذا التوتر ، ولكنهم كانوا يتنقلون بشكل مربك من شكل لغوى إلى شكل آخر . وكانوا يظهرون عدم اليقين ، ومن ثم خطر التهلكة ، الذى كان جزءاً من رسالتهم .

وإذا كان الإسرائيليون فى مشكلة مع الرب ؛ بسبب عدم إخلاصهم للميثاق ، كذلك فإن المسيحيين يعانون نفس المشكلة ؛ بسبب عدم وفائهم بالعهد أيضا . وتمامًا مثلما كان يصدق هذا على الإسرائيليين عموما وعلى الأفراد الإسرائيليين ، كان يصدق على المسيحيين بشكل عام وبصفة فردية أيضا . إذ كان يمكن أن يكون الفرد غير مخلص ، كما كان يمكن أيضا أن يكونوا جميعا غير أوفياء .

وهكذا علمهم التنميط البروتستانتى أن العناية الإلهية التى يؤمنون بها بقوة لم تكن عشوائية أو هوائية . إذ إنه اتبع المبادئ والنماذج الواردة فى الكتاب المقدس التى يمكن السعى إليها واكتشافها . ومن ثم كان الكتاب المقدس رفيقا يوميًا مهمًا ؛ لأنه يمكن أن يكشف كل الأسرار من كل نوع ، ولم يكن تحديد خارطة الطريق إلى الأمام أقلها أهمية . وفى عالم غير مستقر للغاية ، ومع وجود مبشرين مثل إدواردز أخذوا على عاتقهم ألا يجعلوه يبدو أقل من ذلك ، كان الكتاب المقدس هو المادة الوحيدة التى يمكن الاعتماد عليها بأمان . ولا غرو أن القراءة اليومية للكتاب المقدس كانت تعتبر ضرورة ملحة .

ومما يدعو إلى الدهشة قليلاً أن كثيراً من المؤلفات الشاملة للباحثين المسيحيين أخفقت تماماً فى ملاحظة مغزى هذا الشكل من التنميط البروتستانتى، وتعامل التنميط نفسه كممارسة عتيقة ماتت واختفت بشكل أو بآخر مع حركة الإصلاح الدينى. وهكذا فإن «Oxford Dictionary of the Christian Church» يحدد المادة تحت عنوان Types أى الأنماط فى خمسة عشر سطراً، تحددها كما يلى:

«فى اللاهوت فإن البشائر الدالة على المصير المسيحى موجودة فى أحداث وأشخاص العهد القديم. ومثلما كان بوسع يسوع المسيح نفسه أن يشير إلى يونس النبى (يونان) باعتباره رمزاً لإعادة تجسده، فإن القديس بولس كذلك وجد فى عبور الإسرائيليين البحر الأحمر نمط المعمودية، على حين كان ملكى صادق بالنسبة لكاتب الرسالة إلى العبرانيين هو الشكل السابق الذى يشبه المسيح. ويختلف النمط المسيحى عن القصة الرمزية فى الإشارة التاريخية بشكل لا يخطئه النظر... . والتنميط مع التأكيد الرمزى المتزايد، قد استخدم كثيراً فى الكنيسة الباكرة...».

ولاذكر هنا للتنميط البروتستانتى؛ لأنه بغض النظر عن تأثيره الهائل، يعتبر الآن شيئا مرذولاً من الناحية الفكرية. والتنميط البروتستانتى هو سر الذنب فى البروتستانتية الحديثة. والحقيقة أن المذهب البروتستانتى الذى له تنميط من الكتاب المقدس من هذا النوع، والمذهب البروتستانتى الذى ليس له هذا التنميط، يختلفان عن بعضهما لدرجة أنه يمكن اعتبارهما نظامين منفصلين للإعلان؛ إذ إن كل ما يشتركان فيه هو أن أحدهما متداخل فى الآخر. وعندما نقول إن الأنجلو-أمريكيين فى القرن السابع عشر أو القرن الثامن عشر كانوا بروتستانت، فنحن فى خطر افتراض أن عقائدهم كانت قريبة من عقائد البروتستانت المحدثين. والحقيقة أن الحالة العقلية كانت مختلفة كلية. وأقرب مقاربة معاصرة لها ستكون شيئاً مثل مذهب كنيسة يسوع المسيح لقديسى اليوم الآخر (المورمون)، التى ما تزال تطبق نسخة أصولية من طراز القرن السابع عشر أو الثامن عشر. وفى بعض الأمثلة من الأدب المورمونى تعتبر حتى بعض الشخصيات المعاصرة مثل ونستون تشرشل شخصيات سبق تجسيدها فى الكتاب المقدس. وأن الأمة الأنجلو-أمريكية ما تزال بالقطع أمة مختارة. ومع هذا، فبينما التيار الرئيسى البروتستانتى الحديث الذى لم تعد تمثله التقاليد الرئيسية غير الأنجليكانية وغير الكاثوليكية فى بريطانيا وأمريكا

يصنع تعادلاً مباشراً بين الدول الوطنية والشعب المختار، وبهذه الطريقة فإن النفوذ الكامن للتفكير السابق ما يزال قويًا. وكما سنلاحظ يمكن لرئيس مثل ريجان أو بوش أن يثير هذه الأفكار. كما أنها لم تكن بعيدة عن أفكار البريطانيين في السنوات الحديثة.

والمادة التى كتبها أندرولوث عن التنميط فى « Oxford Companion to Christian thought » تشير إلى أن التنميط كان منهجًا معتادًا للمدرسين اليهود الربانيين؛ إذ إنهم كانوا يعاملون التوراة (الأسفار الخمسة الأولى من الكتاب المقدس) باعتبارها «مصدراً ثقة للإرشاد عن كيفية عيش حياة تسر الرب داخل إطار الميثاق». والتنميط المسيحى نهب النصوص العبرية المقدسة ليس من أجل نصوص البرهنة على الوحى المسيحى فقط، ولكن لبيان كيف أن مجىء المسيح كانت له بشائر دائمًا ـ حتى بواسطة الكتّاب اليهود الذين لم يدركوا أن ذلك كان هو ما يفعلونه. وهكذا فإن قصة سقوط آدم وحواء كانت بشارة بتصحيح السقوط بالعمل الخلاصى للمسيح، آدم الثانى (ومريم هى حواء الثانية)؛ وقصة موسى وهو يخرج بنى إسرائيل من مصر كانت بشارة بالخلاص الذى قدمه المسيح للجنس البشرى، مع عبور البحر الأحمر باعتباره تشخيصًا سابقًا للمعمودية المسيحية؛ وقد نُظر إلى نشيد الإنشاد باعتباره احتفالاً بالعلاقة الخفية الصوفية بين المسيح والكنيسة؛ وهلم جرا.

وتحت تأثير آباء الكنيسة الأوائل (وهو لقب يتحدد عادة بمدى القرون الخمسة الأولى بعد المسيح) صار التنميط جزءاً من المقاربة المنهجية لفهم النصوص المقدسة. ووفقًا للوث، فإن أوريجن رأى طبقتين من المعانى فى النصوص المقدسة، معنى حرفيًا وآخر رمزيًا:

«هذا المعنى المزدوج قام المفكرون اللاحقون بتكبيره، فقد ميزوا الطبقات المختلفة داخل المعنى الأعمق فى أربعة معان للنص المقدس، وهو الأمر الذى صار معتادًا فى العصور الوسطى الغربية. هذه المعانى الأربعة كانت (١) المعنى الحرفى أو التاريخى. (٢) المعنى الرمزى (الذى كان يعنى عادة المعنى المسيحى، سواء كان مذهبيًا أو طقسيًا). (٣) المعنى الأخلاقى الذى كان يهتم بالسلوك المسيحى. (٤) المعنى التصاعدى الذى اهتم بمصير الحياة المسيحية. . . .

هذه المقاربة للنصوص المقدسة التي تأسست في الغرب جزئيا على النضال في سبيل الصرامة العلمية، النافرة من الحياة المسيحية، والتي وجدت في المذهب المدرسي، ثم أخيراً في الجدل والمناقشات التي تولدت عن حركة الإصلاح الديني . . . وقد صارت هذه المقاربة التقليدية للنص المقدس أشد بعداً بفعل حركة التنوير وبروز منهج النقد التاريخي باعتباره الوسيلة الوحيدة لتفسير النصوص، بما في ذلك نص الكتاب المقدس، بحيث ينزل بمعنى النص إلى القصد الأصلي للكاتب».

وصار التنميط الجدلي في فترة ما بعد الإصلاح الديني، شكلا شائعا منذ منتصف القرن السادس عشر، وساعده على ذلك مؤلفات مثل كتاب فوكس «Book of Martyrs». **وهكذا كان أعداء انجلترا هم أعداء الحرية والكتاب المقدس والرب: وهم عبدة الأصنام، يؤمنون بالخرافات، قساة، طغاة وفوق هذا وذاك أجانب تماما مثل أعداء بني إسرائيل القدماء - فراعنة مصر وملوك بابل، وهكذا . والواقع أنه لم يكن من الضروري أن تخرج وتفتش عن العدو؛ لكي ترى إذا ما يتصف بهذه الخصال حقًا. والتشابه مع بني إسرائيل القدماء كان إجابة على السؤال بالإيجاب.** بيد أنه لا يهم كم مرة تم الادعاء فيها بأن الكتاب المقدس يقف إلى جانب الحرية؛ لأن هذا لا يجعله أمراً صحيحًا. وكلمة الحرية نفسها ترد مرة واحدة في العهد القديم، ومرة واحدة في العهد الجديد، ولكنها لم ترد في أي من المرتين بالمعنى الذي يشار إليه هنا. إذ إنها تقترب من استخدام الفكرة بهذا المعنى السياسي الوارد في سفر إشعيا (٥٨ : ٦ـ ٧) حيث يشرح النبي لماذا كان صائماً:

«أليس هذا صومًا أختاره حل قيود الشر. فك عقد النير وإطلاق المسحوقين أحراراً وقطع كل نير. أليس أن تكسر للجائع خبزك وأن تدخل المساكين التائهين إلى بيتك. إذا رأيت عريانا أن تكسوه وأن لا تتغاضى عن لحمك».

وما كان يحدث في الحقيقة هو أن الكاثوليكية الرومانية، التي كانت عدو الأمة العتيق خلال الفترة التي تم فيها إرساء إحساس إنجليزي متمايز بالهوية، كانت توصف تحديداً بأنها عبادة أصنام قبل أي شيء، ومؤمنة بالخرافات، وقاسية طاغية كما أنها أجنبية طبعًا (أو على الأقل بأنها وكيل لقوى أجنبية) دونما حاجة إلى

الإشارة إلى البرهان الفعلى. لقد كانت شيئا من الأشياء التى يعرفها الجميع. والواقع أن التنميط فى العهد الجديد، والذى ارتكز إلى حد كبير على سفر الرؤيا، قدم محصولا أوفر من النعوت والأوصاف لهذا العدو الحقيقى (الكاثوليكية الرومانية): المسيح الدجال، الوحش، رجل الخطيئة، عاهرة بابل، المرأة ذات الثوب القرمزى. وهكذا فإن العدو هو سيد التنكر والتخفى، ماهر، مخادع، كذاب أشر، متآمر. وإذا لم يظهر العدو متآمراً دساساً فإن هذا مجرد جزء من الخداع. وسفر الرؤيا يشرح كيف أن هذه القوى الشيطانية سوف يطاح بها فى المعركة النهائية فى مكان يدعى هرمجدون. وربما لا يكون مدهشاً أن الباحثين المحدثين ذوى العقليات الأخروية من كل الاتجاهات يستبعدون هذا باعتباره مجرد تعصب ليس جديراً بالتأمل اللاهوتى الجاد. وبهذا فإنهم يقللون من دور واحد من أهم التأثيرات المكونة للثقافة الأنجلو-سكسونية على مدى القرون القليلة الماضية.

وفضلاً عن ذلك، فإنه يجدر بنا أن نلاحظ أن كثيراً من الصفات والخصال التى نسبها البروتستانت إلى الكاثوليك، وليس أقلها الميل إلى الانخراط فى المؤامرات المشئومة، مشابهة بشكل مذهل للصفات والخصال التى كان الكاثوليك ينسبونها إلى اليهود؛ إذ إن أحد أشكال الإحلال يعكس الشكل الآخر. ذلك أن الكاثوليك حينما اعتبروا أنفسهم خلفاء اليهود كشعب الله المختار، وقع اليهود فى براثن مبدأ أن من ليس معى فهو ضدى (إنجيل متى ١٢ : ٣٠) «من ليس معى فهو علىّ ومن لايجمع معى فهو يفرق» فقد وصفوا بأنهم أعداء لـ «الشعب المختار» سواء كانوا يرون أنفسهم على هذا النحو أم لا. إذ كان من المفروض أن يتصرفوا على هذا النحو. ومن المنطقى أنه لكى تكون عدو عمل الرب يعنى أن تكون فى عصبة الشر. وهذا هو بالضبط كيف رأى الكاثوليك فى العصور الوسطى اليهود، وكيف رأى البروتستانت الكاثوليك بعد العصور الوسطى. وفى أعقاب طرد اليهود من انجلترا سنة ١٢٩٠م، بعد المزاعم القائلة بطقوس قتل الأطفال كان الموت ينتظر أى يهودى يعود إلى انجلترا. وبعد حركة الإصلاح الدينى، صارت ممارسة الكاثوليكية جريمة خطيرة فى انجلترا، وكانت عقوبة أن تكون قسيساً كاثوليكياً هى الشنق والسحل وتقطيع الأطراف الأربعة. وكان البروتستانت الإنجليز أقل اهتماماً بحلولهم محل اليهود فى ميثاق الرب لسبب قوى هو أنه لم يكن هناك يهود فى المملكة: أما فى

البلاد البروتستانتية التى كان بها يهود، مثل ألمانيا. فإن الطعن البروتستانتى المعادى لليهود غالبًا ما كان عنيفا بشكل خارق للعادة؛ إذ إن مارتن لوثر الذى كان يتوقع فى البداية أن ينضم اليهود إلى النوع الجديد من المسيحية الذى نادى به، خاطب السلطات العامة فيما بعد فى ألمانيا ينصحها كيف تتعامل مع اليهود:

«أولا: إشعال النيران فى معابدهم أو مدارسهم ودفن ما لا يحترق وتغطيته بالتراب، بحيث لا يرى أحد مرة أخرى حجرًا أو رمادًا لهم. . . ثانيا: إننى أنصح بإزالة منازلهم أيضًا وتدميرها؛ لأنهم يتابعون فى داخلها نفس الأهداف التى يتابعونها فى معابدهم. وبدلا من ذلك يمكن إسكانهم تحت سقف فى جرن، مثل الغجر. فإن هذا سوف يذكرهم بأنهم ليسوا سادة فى بلادنا، كما يتباهون، ولكنهم يعيشون فى المنفى والأسر، وأنهم باستمرار ينوحون ويحزنون علينا أمام الرب.

ثالثا: أنصح بأن كتب صلواتهم، وكتاباتهم التلمودية، التى فيها وثنية وأكاذيب، ولعنات وكفر يتم تعليمه، تنتزع منهم. رابعا: أنصح بمنع أحبارهم وربانيهم من التعليم منذ الآن فصاعدا ومعاقبة من يخالف ذلك بالإعدام وقطع الأطراف. . .».

وفى مناخ مثل هذا يمكن تصديق كل وشاية تقريبا مهما يكن الدليل الذى يناقضها قويًا. وفضلاً عن ذلك، فإن المجموعة التى استبعدت والتى لم تعد مختارة، يفترض أنها تتآمر لتدمير الجماعة التى خلفتها حسب رؤية هذه الجماعة. وهكذا فإن المؤمرات الكاثوليكية المزعومة والتى لا نهاية لها فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، والتى تحمل بعض المصداقية فى إنجلترا وأمريكا، تتماشى مع بروتوكولات حكماء صهيون ذات السمعة الرديئة التى ظهرت قبل الحرب العالمية الأولى داخل روسيا. وكانت «افتراءات الدم» التى ظهرت فى العصور الوسطى مثالاً سابقًا. وهناك صدى لنظريات المؤامرة هذه فى الطريقة التى كان كثير من المستعمرين الأمريكيين قد بدأوا يشكون فى دوافع البريطانيين قبل الثورة. وقد لاحظ كثير من المعلقين التشابه بين معاداة السامية ومعاداة البابوية، واللتين كانتا من الملامح العادية للوعى الأنجلو - سكسونى حتى وقت قريب نسبيًا. وما كانت هذه الانحيازات تشترك فيه هو أنه على الرغم من أن الناس العاديين المهذبين كانوا

يأخذون بها، ومع هذا فإنهم لم يكونوا واعين بالمرة أنهم منحازون. وبقدر ما كانوا يعترفون بأنهم لايحبون الكاثوليك أو اليهود، فإنهم كانوا يزعمون أن موقفهم عقلانى وتبرره الأدلة والبراهين. والخوف من الإنجليز (الأنجلوفوبيا) فى أمريكا يمكن بالتالى رؤيته على أنه مشابه بديل لمعاداة السامية فى المسيحية ومعاداة الكاثوليكية فى البروتستانتية؛ ذلك أنه ميل إنسانى فى أن تظن أسوأ الظنون فى أولئك الذين استبعدوا أو استبدلوا بآخرين.

كما أن هذا الأمر ليس أمرًا نظريًا خالصًا. إذ يمكن أن تكون له تطبيقات شاملة فى السياق الذهنى لأولئك الذين يصوغون السياسة الوطنية. وهناك أمثلة مهمة على هذا حتى فى التاريخ الحديث مثل أزمة السويس سنة ١٩٥٦م، فقد حدث فى سنة ١٩٥٦م أن أمريكا، التى كانت إمبراطوريتها القائمة على السيادة العسكرية والمالية تتوسع على مستوى العالم، اقتربت جدا من رفض حق انجلترا فى أن تكون قوة استعمارية. وبفعل هذا كانت صادقة تماما بحسب منطق الاستبدال.

ولم يحدث أبدًا أن كان التنميط بعيدًا حقًا عن الطقوس الدينية المسيحية، على الرغم من أنه حتى العصور الحديثة لم يكن أحد يظن أنه موضوع يستحق الاهتمام والدراسة بصفة خاصة. ولكن الجهود التى بُذلت لاستئصال مصادر معاداة السامية كلها من الفكر المسيحى قد حفزت على إعادة فحص كل الفروض السابقة، وهى عملية مازال أمامها شوط طويل حتى تبلغ الكمال.

وثمة دراسة عن المواقف الحديثة تجاه إسرائيل واليهود، تمت بين أعضاء كنيسة انجلترا، أوضحت أن مذهب الاستبدال كان ما يزال واسع الانتشار. وكانت وجهة نظر الغالبية أن الوعود الواردة فى النصوص المقدسة والنبوءات عن أرض إسرائيل قد تحققت فى شخص يسوع المسيح (وهو ما يعنى أنها قد تمت ومن ثم لم تعد قائمة)؛ وكان هناك رأى قوى للأقلية يقول إن رجوع اليهود إلى إسرائيل هو استكمال نبوءة الكتاب المقدس. ويقول كتّاب التقرير إن هذا الرأى اعتمد على المعنى الحرفى لنصوص منتقاة من الكتاب المقدس، وهى نصوص قد يجادل الكثيرون بأنها لا تأخذ فى الحسبان أيا من الدراسات الحديثة أو الحقائق السياسية المعاصرة فى الشرق الأوسط. وكل من وجهتى النظر إحلالية استبدالية من حيث إنهما تنطويان على استبدال الميثاق اليهودى بميثاق مسيحى. والاعتقاد بأن عودة

اليهود متسقة مع النبوءة ليس رأيا محابيًا لليهود حسبما يبدو، لأن بقية النبوءة، تشير إلى تحول اليهود القادم إلى المسيحية، وبذلك يوفون بأحد الشروط الضرورية للقدوم الثانى للمسيح. وبعبارة أخرى فإن هذه النظرية نظرة تنميطية للغاية. وبقاء مثل هذه المعتقدات وانتشارها بين الأعضاء العاديين فى كنيسة انجلترا أدهش القائمين على هذه الدراسة بشكل ما. إذ كانوا يتوقعون أن تكون مثل هذه الآراء قاصرة على بعض الطوائف الأصولية فى أمريكا. وحيث يحتمل أن تكون أوسع انتشارًا من هذا، وربما يكون كذلك عاملاً مكونًا وراء التأييد الأمريكى طويل المدى لدولة إسرائيل.

ومهما كان الأمر، فإن كنيسة انجلترا أولت اهتمامًا بعملية الاستبدال المسيحية-اليهودية أقل بكثير مما أظهرته الكنيسة الكاثوليكية؛ إذ إنها على سبيل المثال لم تقم حتى الآن بتعديل طقوسها لتضمن استئصال أى شىء يعطى أية أرضية جديدة لمعاداة السامية. والاهتمامات الحديثة المتجددة فى الأسئلة التنميطية كانت لها تفسيرات أخرى. وكما يلاحظ أندرو لوث، فإن الإحياء الطقسى فى التيار العام الحديث للمسيحية أيقظ مجددًا الاهتمام بالموضوع؛ بسبب التفضيل الحديث للجذور الشعرية والمجازية فى معرفة الرب على التقريرات الحقيقية الفئوية. ومحاولات ربط الحقائق الدينية فى شكل فروض أقل جاذبية للخيال من استخدام السر النثرى، ومن الاستعارة للمجازية الشعرية، أو الكناية التجسيدية. ومن الأمور المتصلة بهذا أيضًا أنه فى الكنيسة الكاثوليكية، فإن التأكيد المتجدد على جماعة المؤمنين باعتبارها «شعب الرب» كان قوة دفع لعملية التحرير فى زمن مجمع الفاتيكان الثانى (١٩٦٢-١٩٦٥م). وقد صار مناقشة وحجة لصالح المسئولية الجماعية، ولصالح إعطاء وزن أكبر للعلمانيين، كما أنه طرح طريقة بديلة، أكثر أفقية للنظر إلى الكنيسة، بدلاً من الطريقة الهيراركية (أو الرأسية) الصارمة.

وما لم يُشر إليه لوث وغيره ممن كتبوا عن التنميط، هو مثابرة التنميط فى العرض البروتستانتى للنصوص المقدسة، لاسيما حين تكتسى مستوى عاليًا من الأهمية السياسية. وهناك قدر كبير من الأمثلة المعاصرة. فعندما خاطب الرئيس رونالد ريجان مجلس العموم البريطانى سنة ١٩٨٢م، فلابد أن أولئك الذين

يعرفون التنميط المتعلق بالكتاب المقدس قد راعتهم إشارته إلى «إمبراطورية الشر» ـ أى ذلك الجزء من العالم الذى كان يحكمه السوفييت ـ باعتبارها موازيًا لإمبراطورية بابل الجديدة التى أخذت اليهود فى الأسر البابلى سنة ٥٨٧ ق. م. وحقيقة أن اليهود لم يطلق سراحهم سوى عندما هزم الإمبراطورية وغزاها قورش الملك الفارسى، الذى يشير إليه سفر أشعيا على أنه «الممسوح من الرب»، هذه الحقيقة أخافت بعضًا من المعلقين العارفين من أن ريجان كان يرى نفسه صاحب قدر مشابه. أما أولئك الذين لا يعرفون التنميط من الكتاب المقدس فربما يكونون قد وجدوا أنفسهم على شفا الحرب العالمية الثالثة قبل أن يدركوا ذلك.

بل إن هناك استخدامًا أكثر حفاوة للتنميط على يد رونالد ريجان تمثل فى إشارته إلى أمريكا باعتبارها «مدينة تضىء على التل» وهو استخدام تنميطى لما ورد فى إنجيل متى (٥: ١٤): «أنتم نور العالم. لا يمكن أن تخفى مدينة موضوعة على جبل». ولم يكن هذا بأى حال أمرًا فريدًا، ففى خطاب الوداع الذى ألقاه بعد نهاية رئاسته قال إن مصدره ليس هو الكتاب المقدس، ولكن المستوطن البيوريتانى چون ويثروب الذى عاش فى نيوإنجلاند القرن السابع عشر. وبمعنى ما يكون هذا تنميطًا مزدوجًا: أى الاستعارة من ويثروب الذى كان بدوره يستعير من العهد الجديد. أو هو حتى تنميط ثلاثى؛ فإن كلمات يسوع التى أشار إليها إنجيل متى هى نفسها تنميط؛ ذلك أن مستمعيه لابد وأنهم فهموا فى الحال أنه كان يلمح إلى جبل صهيون الذى بنيت عليه مدينة القدس على يد داود قبل ألف سنة(*). وفى الأدب اليهودى يكون صهيون مرادفًا للوطن اليهودى الذى يشتاق إليه المنفيون على البعد. أما فى الأدب المسيحى فإن صهيون يصير روحيًا فى عاصمة مملكة السماء، وبعبارة أخرى أنه ليس مكانًا حقيقيًا على الأرض (إلا عندما يكون هو أمريكا حسبما يرى چون ويثروب ورونالد ريجان).

(*) الثابت تاريخيًا أن القدس بناها اليبوسيون قبل داود بألف وخمسمائة سنة على أقل تقدير، واليبوسيون قوم من العرب من كنعان. وقد أطلق عليها اسم يبوس، وأور سالم؛ أى مدينة سالم الذى كان من آلهة الكنعانيين. وفى القرن العشرين قبل الميلاد زارها النبى إبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء. ـ المترجم.

والسياق الذى جاء فيه النص (متى ٥ : ١٤) يقدم الحل، إنها موعظة الجبل، أى عرض يسوع المسيح لأخلاق جديدة جذرية للمملكة الروحانية القادمة، وربما لم يكن ريجان يعرف هذا، على الرغم من أنه يُرجح أنه كان يعرف. أما ويثروب، فمن المؤكد أنه كان يعرف. وعبارة «مدينة على الجبل» فى نسخة الملك چيمس للكتاب المقدس التى لابد وأن ريجان كان يعرفها، هى مثل معظم الإشارات التنميطية ليست مجرد مجاز يستخدم فقط لوصف شىء ما. إنها مجاز يحمل رسالة؛ إذ إنها تقول ماهو كائن، ولكنها تقول أيضا ما ينبغى أن يكون. وفى الفقرة الكاملة، يصير من الواضح أيضا من أين حصل ويثروب على صفة اللامعة:

«ففتح فاه وعلّمهم قائلاً. طوبى للمساكين بالروح. لأن لهم ملكوت السماء. طوبى للحزانى؛ لأنهم يتعزون. طوبى للودعاء؛ لأنهم يرثون الأرض. طوبى للجياع والعطاش إلى البر؛ لأنهم يشبعون. طوبى للرحماء؛ لأنهم يرحمون. طوبى للأنقياء القلب. لأنهم يعاينون الله. طوبى لصانعى السلام؛ لأنهم أبناء الله يدعون. طوبى للمطرودين من أجل البر؛ لأن لهم ملكوت السموات. طوبى لكم إذا عيروكم وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلى كاذبين. افرحوا وتهللوا؛ لأن أجركم عظيم فى السموات. فإنهم هكذا طردوا الأنبياء الذين قبلكم.

أنتم ملح الأرض ولكن إذا فسد الملح فبماذا يُملح. لا يصلح بعد لشىء إلا لأن يطرح خارجًا ويُداس من الناس. أنتم نور العالم. لايمكن أن تخفى مدينة موضوعة على جبل ولا يوقدون سراجًا ويضعونه تحت المكيال، بل على المنارة فيضىء لجميع الذين فى البيت. فليضىء نوركم هكذا قدام الناس لكى يروا أعمالكم الحسنة ويمجدوا أباكم الذى فى السموات.

لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأكمل». (متى ٥ : ٢-١٧).

وبعد أن كرس معظم خطابه لمديح الطريقة الأمريكية فى الحياة، ولاسيما الحب الأمريكى للحرية، وصف ريجان كيف أنه اعتاد أن يرقب الفجر من نافذة خاصة فى البيت الأبيض:

«فى الأيام القليلة الماضية عندما كنت عند تلك النافذة فى الطابق العلوى،

فكرت قليلا فى «المدينة المتلألئة فوق التل». والعبارة مأخوذة عن جون وينثروب، الذى كتبها ليصف أمريكا التى تخيلها. وما تخيله كان مهمًا؛ لأنه كان حاجًا من الأوائل، واحدًا من رجال الحرية الأوائل. وقد رحل إلى هنا على متن ما قد نسميه اليوم قاربًا خشبيًا صغيرًا؛ وهو مثل الحجاج الآخرين كان يبحث عن وطن لكى يكون حرًا. لقد كنت طوال حياتى السياسية أتحدث عن المدينة المتلألئة، ولكننى لا أعرف إذا ما كنت قد ربطتها على الإطلاق بما رأيته عندما قلت ذلك. ولكنها فى ذهنى كانت مدينة فخورة مبنية على صخور أقوى من المحيطات والرياح العاصفة. باركها الرب، وتعج بالناس من كل نوع يعيشون فى انسجام وسلام؛ مدينة ذات موانئ حرة تتدفق بالتجارة والحيوية. وإذا كان لابد أن تكون هناك أسوار للمدينة فإن الأسوار لها أبواب والأبواب مفتوحة لأى واحد يمتلك الإرادة والجسارة على أن يأتى إلى هنا. هكذا رأيتها وما زلت أراها.

وكيف تقف المدينة فى هذه الليلة الشتوية؟ إنها أكثر ازدهارًا وأكثر أمنًا وأكثر سعادة مما كانت عليه قبل ثمانى سنوات. ولكن ما هو أكثر من ذلك: أنها بعد ٢٠٠ سنة، قرنين من الزمان، ما تزال قوية وصادقة على الحافة الجرانيتية، كما أن توهجها ثابت مهما كانت شدة العواصف. وهى ما تزال منارة، وما تزال مغناطيسًا يجتذب كل من يجب أن ينالوا الحرية، للحجاج من جميع الأماكن المفقودة الذين يهرولون فى الظلام ساعين صوبها».

ومن المثير للسخرية - قليلا بطبيعة الحال - أن المجتمع الذى أسسه الرجل المحب للحرية الذى تحدث عنه ريجان، وهو جون وينثروب كان استبداديًا شموليًا مثل أى استبدادى شمولى آخر. وكانت فكرته عن الحرية السياسية فكرة ضيقة. أما فى الأمور الدينية فلم تكن فكرة الحرية موجودة لديه على الإطلاق؛ إذ إنه لم يستطع أن يتحمل الانتقادات الموجهة ضد إدارته كحاكم لمستعمرة ماساشوستس. فعندما سيطرت آن هتشنسون وهى مجرد امرأة، على كنيسة بوسطن سنة ١٦٣٦م وعملت على تحويل المستعمرة كلها إلى موقف دينى جديد، وصمها وينثروب بالتجديف والكفر. وحرص على ضمان نفيها ثم صدر قرار الحرمان الكنسى ضدها فيما بعد. وإذ كانت حياتها فى خطر هربت إلى جزيرة رود أيلاند. وتكتب دائرة المعارف البريطانية إن «كان وينثروب يتابعها بالعقوبات لكى يزيد من شقائها».

وكما كان يحدث دائمًا فى النظرية السياسية الأنجلو-أمريكية، وبدرجة أشد وضوحًا فيما يتعلق بما يسمى الثورة المجيدة سنة ١٦٨٨م، كانت كلمتا «الحرية» و«التحرر» مرادفين للعداء الكاثوليكية، التى كانت تعتبر القطب المعاكس بوصفها اضطهادًا شموليًا. وسواء أكان هذا حقيقيًا أم لا مسألة أخرى: إذ كان هذا يحظى بتصديق على نطاق واسع؛ لأن التنميط البروتستانتى من الكتاب المقدس، لاسيما من سفر الرؤيا، قال إنه يجب أن يكون كذلك. ألم يبرهن كتاب فوكس Book Of Martyrs. هذه النقطة؟ (وفى الحقيقة أن فوكس كان أيضا مدفوعًا بمنطق مسبق فى التنميط، وصور الدليل على الطغيان الكاثوليكى تحت حكم الملكة مارى فى هذا الضوء. وغاب عنه، مثلاً التأثير الكابح لإسپانيا الكاثوليكية على حمية مارى الدينية؛ لأن ذلك لم يكن يناسب النظرية).

أما معنى كلمة الحرية الذى كان البيوريتان فى نيوإنجلاند يهتمون به حقًا فكان الهرب من الاتجاهات الرومانية المزعومة فى الكنيسة الكاثوليكية، والتى كان من المعتقد أنها تهدد حرية الناس من أمثالهم ممن يسيرون على حذو الرسالة البروتستانتية الكاملة لجون كالفن. فقد كانوا هم المضطهدين الذين قال عنهم المسيح إنهم مباركون. وفاتهم أن يروا أنهم يمارسون الاضطهاد. وفيما يتعلق بتحويل النظم الكنسية فى عهد چيمس الأول وتشارلز الأول إلى الرومانية حقًا؛ فإن تلك أمور أرجأوا مناقشتها: إذ كان يكفى القول بالكاثوليكية الرومانية ليكون خرقًا خطيرًا للقانون فى انجلترا كما فى ماساشوستس، أما أن تكون قسيسًا كاثوليكيًا فتلك كانت الجريمة الكبرى. ومن المفترض أن هذا لم يكن كافيًا بالنسبة لأناس لهم طبع ويشروب. إذ كان يعيش فى الوقت الذى لم يكن فيه التهديد الكبير لانجلترا البروتستانتية مصدره الكاثوليك الظاهرون فحسب (والذين كان من حسن حظهم أنهم على قيد الحياة) ولكن من المعمودين السريين، حسب الرؤية السائدة. هؤلاء كانوا ما يسمون المعمودين الكنسيين الذين كانوا يتوافقون فى الظاهر مع الكنيسة القائمة، ولكن كان يفترض أنهم يتآمرون سرًا ضدها. وكان البيوريتان يظنون أن المؤسسات الرسمية الإنجليزية قد أعميت على أيديهم. والنفوذ المفترض لمثل هؤلاء الناس (والذى يفكر المؤرخون الآن أنه كان محل مبالغة كبيرة) كان من العوامل الكبرى التى أدت إلى الحرب الأهلية ضد تشارلز الأول وإلى الإطاحة بچيمس الثانى.

والاستخدام السياسي للتنميط البروتستانتي، كما في خطب ريجان وكثير غيره، تجاوزهما أدريان هاستنج بشكل مدهش في دراسته عن الدين والهوية الوطنية The Construction of Nationhood . فهو يلاحظ وصف أمريكا باعتبارها «مدينة على التل»، وكذلك الطريقة التي كان چورج واشنطن يحتفى به على أنه موسى الجديد وينظر إلى بريطانيا باعتبارها مصر أخرى، وذلك في زمن الثورة الأمريكية، وهما إشارتان نمطيتان إلى الكتاب المقدس. بيد أنه لايربط هذا بأية صورة أكبر.

وكما يبدو شائعًا بين الباحثين المحدثين، فإن الحقيقة الحاسمة التي غفل عنها هي الطريقة التي كان البروتستانت منغمسين بها في النصوص المقدسة، من القراءة المنتظمة واليومية في الكتاب المقدس بحيث شكلت وعيهم وأمدتهم بخلفية شاملة لكل فكر آخر لديهم. وبالنسبة لكثير من المسيحيين البروتستانت الإنجليز والأمريكيين حتى الحرب العالمية الثانية على الأقل، كان الكتاب المقدس يقدم العدسات التي يُرى منها بقية العالم. ولا غرو أن لويد چورج كان أكثر ألفة بملوك بني إسرائيل منه بملوك إنجلترا؛ إذ إنه تربى في ثقافة بروتستانتية مستمدة من الكتاب المقدس كانت تعتبر تاريخ بني إسرائيل القديم كما لو كان تاريخ بريطانيا (إسرائيل الجديدة).

وإذا كان علماء اللاهوت الإنجليز من أمثال هاستنج قد فاتتهم هذه النقطة على أية حال، فإن المؤرخين الأمريكيين لم يغفلوا عنها؛ إذ إن ديبورا ماتسن في كتابها American Exceptionalism تسير على خطى ساكڤان بيركوڤيتش في كتاب في وصفه The Puritan Origins of American Self :

«الأمر اللازم الذي عمل تحته المؤمنون اليوريتان في سعيهم لتعريف أنفسهم وتقدم أرواحهم تجاه الخلاص بالوعود والنماذج الممثلة في الكتاب المقدس. وفي تقدير بيركوڤيتش أن أهمية التنميط بالنسبة للمؤمنين الفرادى يكمن في قوته التي تخلق مشابهات عبر الزمن وبذلك تسمح للفرد اليبوريتاني أن يعرِّف بالحوادث الرئيسية في تاريخ العناية الإلهية.

الأفراد والأمم. كان لتطبيق وصف «الشعب المختار» على الإنجليز ثم فيما بعد على الأمريكيين أصل مخصوص في هذه الطرق البروتستانتية ثم اليبوريتانية في النظر إلى الكتاب المقدس. ولكن كان له أصلان آخران، أحدهما - رغبة السياسيين في القرن الثامن عشر في ضم الأمم الثلاث التي تكوّن بريطانيا العظمى في كيان

بروتستانتى واحد، وذلك لتدعيم السلالة الهانوفرية وتحويل الناس ضد اليعقوبيين الكاثوليك. وهو ما تمت دراسته بالفعل بشكل كبير فى كتاب ليندا كولى. ولكن جذورها تعود مباشرة إلى لحظة خلق الدولة الوطنية الإنجليزية، وبالتحديد انفصال هنرى الثامن عن روما بسبب مسألة طلاقه. وهذه منطقة لم تدرس نسبيًا.

وعلى مدى قرون فيما بعد كانت الرؤية المستقرة للمسيحية فى التاريخ الإنجليزى قبل عصر الإصلاح الدينى هى التى ترى الكنيسة باعتبارها كنيسة فاسدة، عقيمة، تؤمن بالخرافة، جاهلة، يركبها القساوسة، بحيث إن الناس لم يكونوا قادرين على الانتظار للتخلص منها. ولم يكن من الصعب الشك فى أنه كان لهذه النظرة مستوى عال من الدعاية، ولم يحدث سوى فى العقد الأخير أن صار من الممكن الحصول على صورة أكثر وضوحًا. ويوافق الباحثون فى تلك الفترة بدرجة أو بأخرى على أن كتاب إيامون دوفى، الذى يحمل عنوان «The Stripping of Altars» والقائم على أساس فحصه لوثائق ما قبل عصر الإصلاح الدينى، ويكشف عن ديانة شعبية فى العصور الوسطى العالية، هو الأقرب إلى الحقيقة. وهو يناقض تلك الرؤية المقبولة فى كل جانب تقريبًا ويستنتج دوفى:

«كانت الكاثوليكية فى العصور الوسطى تتمتع بسيطرة قوية مختلفة وعاتية على خيال الناس وولائهم حتى لحظة قيام حركة الإصلاح الدينى. إذ لم تكن الديانة التقليدية تشوبها أية علامات تدل على الإرهاق والذبول؛ والواقع أنه بمجموعة كاملة من الوسائل، من تكاثر الكتب الدينية باللهجات المحلية حتى التعديلات داخل عبادة القديسين الوطنية والإقليمية، كانت تبدى قدرة جيدة على مواجهة الحاجات الجديدة والظروف الجديدة. . . وعندما قيل كل شىء تم فعله، كانت حركة الإصلاح الدينى اضطرابًا عنيفًا، وليس التحقيق الطبيعى، لما كان قويًا فى ديانة العصور الوسطى المتأخرة والممارسات الدينية أثناءها».

لقد كانت بعبارة أخرى ثورة حقيقية، قطيعة حادة مع الماضى، ولكنها قطيعة تبدو وكأنها شىء آخر، لقد كان تخيل المجتمع الوطنى (حسب مفهوم بندكت أندرسون) ما يزال فعلاً من أفعال الذاكرة، بيد أنه كان لابد من تغيير الذاكرة - أو تزييفها فى الواقع. وكان لابد من إزالة الدليل المادى الذى يسند الذاكرة. وكان هذا

يعنى الأديرة، والتى كانت أكثر من الكاتدرائيات والكنائس الأبرشية، هى العمود الفقرى لانجلترا المسيحية فى العصور الوسطى. إذ كانت النظم الديرية تستعصى على سيطرة الملك بدرجة أكبر كثيراً، وقد تنبأ بمعارضة أكثر رسوخًا لحركته الإصلاحية من هذه الجهة ما لم تتم إزالتها.

لم تكن أوروبا العصور الوسطى تتألف مما نسميه اليوم الدول الوطنية. كما أنها لم تكن دولة وطنية واحدة شاملة، تحكم من عاصمة واحدة. وعلى الرغم من أن التاريخ يقدم أمثلة من الدول الوطنية كنموذج يقوم على أساس نظرية سياسية عن السيادة الوطنية فإنها لم توجد حتى ابتكرها هنرى الثامن (وحسنتها ابنته إليزابيث الأولى).

كانت سيادة الممالك فى أوروبا المسيحية فى العصور الوسطى سيادة جزئية؛ ليس فقط لأنها وجدت فى اتحاد فضفاض يضم السلالات الحاكمة التى كانت تتزاوج فيما بينها غالبًا، ولكنها كانت تعيش تحت تأثير سيادة من نوع آخر، هى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، التى كانت فى كل الأمور تتعلق بالعقيدة والأخلاق؛ إذ إن القانون المدنى - الذى وضعه الملوك - كان يوجد جنبًا إلى جنب مع القانون الكنسى - الذى وضعه البابوات - والذى غالبًا ما كانت له الأسبقية. واللجوء إلى روما كان ممكنًا، على الرغم من أن بعد المسافة ومشقة السفر، لم يجعل هذا أمراً شائعًا. وكانت للبابا أيضًا صلاحيات باعتباره الحاكم الأعلى، والذى كان يمكنه حتى عزل الملوك فى الحالات المتطرفة. وكان الحرمان الكنسى والتحريم (أى منع الاحتفال بالأسرار الكنسية) من الأسلحة التى يُخشى منها، كما ظهر من هنرى الثانى.

فى بعض الأحيان كانت هذه العلاقات تفور وتغلى بحيث تتحول إلى صراع مكشوف، فملوك انجلترا فى العصور الوسطى مثلا قد حاولوا أن يكبحوا جماح الصلاحيات البابوية فى عدة مناسبات، واقترب هنرى الأول من النجاح. أما هنرى الثانى فقد تسبب فى اغتيال كبير أساقفة كانتربورى توماس بيكيت؛ لأنه كان يؤيد استقلال الكنيسة عن الدولة وتدخلها، وقاوم رغبة هنرى الثانى فى أن يترسم خطى جده فى هذه الأمور. أما البابوية بدورها فغالبا ما كانت تلعب السياسة بسلطتها، إما بإعطاء الموافقات على الزواج الملكى، أو برفض الموافقة، حسب اتجاه الريح

السياسية وحسب من يكون محبوبًا أو مكروهًا لديها: إسبانيا أو فرنسا أو الإمبراطور الروماني المقدس، وهلم جرا. بيد أنها لم تكن فاسدة تمامًا: فقد كانت حركات الإصلاح من الملامح المنتظمة في الفضاء الكنسي الروماني. وفي بعض الأحيان كان يُساء استخدام القوة السياسية للبابوية، ولكنها في أغلب الأحيان كانت تستخدم بنزاهة.

ولم تكن فكرة الملكية في العصور الوسطى فكرة علمانية، ففي لاهوت ذلك الزمان كانت السلطة السياسية بأسرها مستمدة من الرب، وكان واجب إطاعة قوانين الدولة واجبًا دينيًا. ولكن الشيء الوحيد الذي لم يكن مسموحًا للملك بأن يفعله هو أن ينصب نفسه بابا، وأن يحل محل أسقف روما في دوره ويأخذ صلاحيات كاملة على الكنيسة وعلى الدولة أيضًا. ولم يكن هذا فقط ما فعله هنري الثامن، ولكنه انطلق بمساعدة من العبقري السياسي توماس كرومويل، في الادعاء بأن انجلترا كانت دائما متحررة من السيطرة البابوية. ومثال هنري الأول وهنري الثاني لم يخدماهما بشكل جيد؛ لأن كليهما كانا فرنسيين في الحقيقة، استمرا يحكمان جزءًا من فرنسا مثل انجلترا، وبسبب خروج هنري الثاني عن الكنيسة، وهو ما نتج عنه في النهاية مصرع توماس بيكيت سنة ١١٧٠م، والذي انتهى بخضوعه للبابا الكسندر الثالث ثم الصلح بينهما بعد سلسلة من التوبة التي حطت من قدر هنري الثاني، بما في ذلك الجلد علنًا بالسياط. وكانت إحدى تحركات هنري الثامن الأكثر أهمية هي أنه جعل مقبرة ومزار توماس بيكيت في كانتربوري- أحد مقاصد الحج الأكثر تبجيلاً في أوروبا- يتم تدميرها وتحرق بقايا القديسين، وحتى العظام، وتذروها الرياح. لقد كان بيكيت رمزًا لاستقلال الكنيسة عن الدولة، وحقيقة أنه بعد موته مباشرة صار أكثر القديسين شعبية في انجلترا أو في أوروبا كلها يدل ذلك على أن العامة اعتبرت أن ذلك المبدأ بمثابة ضمان ضد الاستبداد الملكي المطلق.

كان اللاهوت السياسي الذي هو تلك الصيغة من البروتستانتية التي ارتبطت باسم وليم تايندال في كتابه «The Obedience of a Christian Man» والذي نُشر سنة ١٥٢٧م، والذي أرسى دعائم الرأي القائل بأن طاعة كلمة الرب تتطلب طاعة

الملك. وتشويش كرومويل المتعمد للتاريخ كان المقصود به أن تكون مثل هذه الآراء عادية وتقليدية، وليست شيئًا جديدًا.

وكنيسة انجلترا الحديثة، على خلاف الأجزاء الأخرى من الجماعة الأنجليكانية، تفتقر إلى القول الفصل فى شئونها الخاصة فى نفس المناطق التى كانت محجوزة للبابوية فى العصور الوسطى وانتقلت إلى التاج والبرلمان تحت حكم هنرى بقوانين الإصلاح الكنسى فى ثلاثينيات القرن السادس عشر: تعيين الأساقفة وتحديد العبادة والمذهب. وفى كل من المجالين فإن الدولة الآن قد قلصت سلطتها إلى أدنى حد. ومع هذا فإن الموافقة البرلمانية كانت مطلوبة على قرار كنيسة انجلترا برسامة النساء قساوسة سنة ١٩٩٢م، وموافقة رئيس الوزراء ما تزال ضرورية قبل تعيين أى أسقف كبير (وعادة ما يكون أمامه مرشحان يختار أحدهما). وعلى الرغم من تظاهر كرومويل بأن هذه السلطات كانت دائمًا بحوزة التاج، فإن هذه السلطات التى نقلها هنرى لنفسه كانت ذات مرة سلطات بابوية. ولم تكن أبدًا من سلطات الكنيسة فى انجلترا باعتبارها حقًا، وحتى اليوم فهى ليست كذلك.

ويشرح چونز كيف أن إعادة كتابة التاريخ هذه شكلت الوعى الذاتى الإنجليزى على مدى أجيال قادمة:

«نسى الإنجليز أنهم أوروبيون بسبب هذا التعمد المقصود لأن يسيئوا فهم تاريخهم، فقد قيض لهم أن يصبحوا وطنيين بدرجة متزايدة، وأن يكونوا جزئيين فى نظرتهم، على الرغم من حيازة إمبراطورية عظمى فيما وراء البحار. وقد طوروا صفات وخصالاً أخرى مستلهمة من هذه الرؤية لماضيهم، بما فى ذلك إحساس بالخصوصية والاكتفاء الذاتى، والتفوق والانفصال عن بقية شعوب العالم. هذه الذاكرة الزائفة أثرت على نفسيتهم ونظرتهم للعالم».

بيد أن هذا العامل النفسى لا يقدم تفسيرًا كاملاً. ، فالكاثوليك حتى زمن هنرى الثامن قد أخذوا من اليهود مكانة شعب الرب وصاروا بحسب نص رسالة بطرس الرسول الأولى (٢ : ٩) «وأما أنتم فجنس مختار وكهنوت ملوكى أمة مقدسة، شعب اقتناء لكى تخبروا بفضائل الذى دعاكم من الظلمة إلى نوره العجيب».

هذا يصف الكنيسة نظريًا، ولكن أين كان يجب أن توجد الكنيسة فى الممارسة؟

كان يجب أن تكون فى مكان ما، إن لم يكن فى أحد الأماكن، ففى غيره . وحتى عهد هنرى كانت الإجابة (بقدر ما كان يخص الجزء الغربى اللاتينى من العالم المسيحى) هى المؤسسة التى تتمركز فى روما. وزعم هنرى برئاسة الكنيسة كان يعنى تلقائيا أن هذه الكلمات، إذا لم تعد تنطبق على روما، يجب أن تنطبق آنذاك على كنيسة انجلترا. ومنذ ذلك الحين فإن كنيسة انجلترا وليست روما كانت « . . . أمة مقدسة شعب اقتناء» ولكن هذه لم تكن آنذاك مؤسسة منفصلة عن الدولة الهنرية، مثلما كانت كنيسة العصور الوسطى، بوصفها جزءاً من الكنيسة العالمية مؤسسة منفصلة. لقد كانت أقرب ما تكون إلى ما نعرفه اليوم باسم «وزارة الشئون الدينية»- أى إدارة حكومية. كان الملك يرأس الحكومة فى ذلك الوقت. وكان الجانبان الروحى فى سلطة الملك وجهين لعملة واحدة. لقد كانت انجلترا هى كل من الكنيسة والدولة، وفى كل من المجالين كانت «أمة مقدسة، وشعب اقتناء».

وهكذا فإن انجلترا (وانجلترا وحدها لكل المقاصد والأغراض) وقفت فى مكان يهود العهد القديم، ومسيحىّ العهد الجديد، باعتبارها أداة ليس فقط من أجل أغراض الملك وإنما لأغراض الرب. ومثل العبرانيين الذى يتحدث عنهم العهد القديم، كان هذا شعبًا مختاراً تم تعريفه دينيًا ووطنيًا على السواء. فقد كانت حدود التعريف الدينى هى حدود التعريف الوطنى والعكس صحيح تماما: إذ إن المواطنة فى إسرائيل سواء القديمة أو الجديدة كانت تعنى العضوية التلقائية فى شعب الرب. وقد حازت انجلترا مصيراً واضحًا فقد كان لها دور فريد تلعبه فى خطة الرب الرئيسية لخلاص بنى الإنسان. فقد كانت الصيغة التى اعتنقتها من المسيحية حقيقية بشكل فريد- ويجب أن تكون وإلا يكون الرب ضالعًا فى نوع من الخداع- وهذه الكنائس التى تختلف معها خاطئة (أو ما هو أسوأ، بين يدى الشيطان).

ولكن هذا كان تراثًا محافظًا، وما يزال كاثوليكيًا فى طرازه وأسلوبه، بالشكل الذى يعكس أذواق هنرى الدينية الخاصة. هذا الموقف المحافظ بقى فى الحركة داخل كنيسة انجلترا، والتى عرفت فيما بعد باسم الكاثوليكية الإنجليزية. وكانت دعواها المركزية أن كل أساسيات المسيحية الكاثوليكية قد حفظت سليمة داخل المذهب الأنجليكانى، ويجب الاعتراف بها كما هى من جانب روما والكنائس الوطنية الأخرى. وبعبارة أخرى كان ما منع المصالحة مع روما هو إصرار روما على رؤية

متضخمة للصلاحيات البابوية. ولكن الكاثوليكية الإنجليزية كان لديها استعداد دائم لأن تسلم بأن روما يجب أن تتمتع «بأولوية الشرف بين الكنائس وهو شيء أقرب للمفهوم القائل بالأول بين أقرانه»، ولذلك فإن اللوم في مسألة الانفصال يقع على عاتق روما لمبالغتها في المزاعم البابوية بشأن السمو. وكانت كنيسة انجلترا هي الكنيسة الكاثوليكية القديمة في الوطن. وإذا أثبتت هذه المعادلة أنها غير مقبولة لأكثر أنواع الأنجليكان پروتستانتية، فإن الزعم تم تعديله بحيث يقال إنها كاثوليكية وإصلاحية في آن معا - على الرغم من أن الحقيقة هي أن كليهما سواء في البداية أو على مدى القرون التالية كان ذلك الجزء من كنيسة انجلترا الذي كان إصلاحيا أكثر منه كاثوليكيًا (وبعبارة أخرى وجدت أشكال عديدة من المسيحية الأنجليكانية جنبا إلى جنب داخل بناء كنسي أنجليكاني واحد).

وترجمة هنري وكرومويل المحافظة لتراث المذهب الأنجليكاني لم تبق بلا تحدى وقتا طويلا؛ إذ إن حركة الإصلاح الديني التي قاما بها تحولت لأن تكون مجرد القضمة الأولى فيما ثبت أنه وجبة ممتدة. وإلى حد كبير كان هذا راجعًا إلى مصادفة التوقيت: إذ إن نفاذ صبر هنري على معارضة الكنيسة لطلاقه وزواجه من جديد جاء بالضبط في الوقت الذي كانت فيه حركة الإصلاح الديني البروتستانتية الحقيقية تحث الخطى في القارة الأوروبية، ولاسيما في ألمانيا وفرنسا وهولندا وسويسرا. (وبالنسبة للپروتستانت المؤمنين بالعناية الإلهية، طبعا، كانت مثل هذه المصادفات من تدبير الرب). وقد أدى انتقال التاج الملكي من هنري إلى إدوارد السادس إلى دفع سياسات الديانة الإنجليزية بشدة صوب اليسار. أما البروتستانت المتشددون، والذين كان على بعضهم أن يطردوا إلى المنفى في ألمانيا اللوثرية (نسبة إلى مارتن لوثر) وسويسرا الكالفينية (نسبة إلى چون كالفن) بسبب حركة الاضطهادات الشرسة التي شنتها ماري تيودور ضد البروتستانت - هؤلاء البروتستانت المتشددون أخذوا اعتراضاتهم على الصيغة الرومانية من المسيحية خطوة أبعد كثيراً من المنازعات الهنرية حول الصلاحيات البابوية.

وكان لهذا التطور تداعيات بعيدة المدى؛ إذ إنه أوجد توتراً في قلب حركة الإصلاح الديني الإنجليزية بين نموذجين متصارعين. كان أحدهما محافظا على حين كان الآخر ثوريا راديكاليا، كان أحدهما ملكيا وكنسيا، والآخر جمهوريا،

يؤمن بالمساواة ، فهل كانت السلطة (سواء في الكنيسة أو في الدولة لم يكن مهمًا) تفيض من أسفل إلى أعلى أو من أعلى أسفل. من أسفل إلى أعلى منبثقة من شعب الرب، أي العلمانيين(*) أو من أعلى إلى أسفل من الأمراء والكرادلة اللذين مسحهم الرب واللذين يحكمون باسمه؟ كان هذا صراعًا للأفكار أدى إلى نشوب الحرب الأهلية وتسبب في ثورتين في القرن التالي (ثورة أوليفر كرومويل والثورة المجيدة سنة ١٦٨٨م ضد جيمس الثاني)؛ والحجة التي يسوقها كيفين فيليبس في كتابه «The Cousins Wars» هي أن هناك أيضًا كانت ترقد بذور الحرب الثورية الأمريكية والحرب الأهلية الأمريكية. كما أن الجدل لم ينته بعد.

كانت المسيحية الأوروبية في العصور الوسطى تعتمد على نموذج السلطة من أعلى لأسفل، ولكنها مع ذلك كانت قد طورت نظامًا مزدوجًا للسلطة، أي السلطة الملكية والسلطة البابوية حيث كانت كل منهما تعمل لكبح وموازنة الأخرى. وقد حال النظام المزدوج بين كل جانب وبين حيازة السلطة المطلقة. فإذا تجاوز أحد الملوك الحدود في ممارسة سلطاته فإن الكنيسة التي كانت خارجة عن نطاق سيطرته، كان يمكنها أن تسعى إلى كبح جماحه. وكان العكس ممكنًا أيضًا من الناحية النظرية، على الرغم من أن الملك عادة هو الذي كانت له سلطة فعلية على الأرض، ومن ثم كان تحت وطأة الإغراء الأكبر لإساءة استخدامها. ومن نافلة القول إنه في الممارسة كانت هذه الكوابح والموازنات تتطلب في الغالب قدرًا كبيرًا من الدفع القاسي، بل والحرب من حين إلى حين. فقد حدث قبل فترة غير طويلة من أزمة هنري الخاصة مع السلطة البابوية، أن الإمبراطور الروماني المقدس، شارل الخامس قد تمادى بحيث سار بجيوشه ضد روما، التي نهبتها قواته وأسرت البابا أدريان السادس (الذي كان هنري الثامن يؤيده بقوة قبل ذلك). وقصة توماس بيكيت التي شهدها القرن الثاني عشر، والدور الذي لعبه كبير الأساقفة ستيفن لانجتون في القرن الثالث عشر للمساعدة في وضع الملك جون في الموقف الذي يجعله يوافق على توقيع الماجنا كارتا، إنما هما مثالان على أن الاندفاع الملكي المؤدي إلى الطغيان قد عاد عن طريقه بفعل المعارضة التي أبدتها الكنيسة. كما أن شارل الخامس يقدم مثالاً على الجانب الآخر - أي القوة العلمانية التي تتصرف للتحكم في الكنيسة. هذا

(*) المعنى من ليسوا من رجال الكنيسة.

الضغط كان المسئول أساسًا عن عقد مجمع ترنت سنة ١٥٤٥م الذى انطلق فى عملية إصلاح شاملة للكنيسة الكاثوليكية بجذورها وفروعها، عبادتها، ممارستها ومذهبها، وفى ضوء الانتقادات البروتستانتية جزئيًا.

والموضوع الدستورى الذى أثاره انفصال هنرى الثامن مع روما تمثل فى أنه إذا لم تكن الكنيسة مستقلة، فإنها لاتستطيع أن تقوم بوظيفتها لكبح سلطة الملك، التى سرعان ماصارت مطلقة، بل واستبدادية فى الواقع. وكان هذا، حسب رأى المؤرخ الأنجليكانى وراعى كنيسة القديس بولس الكاتدرائية القس چون هاليبيرتون، هو بالضبط ما تنبأ به توماس مور حينما استقال من منصب المستشار فى انجلترا بدلاً من أن يتعاون مع هنرى فى الاستحواذ على السلطة فوق الكنيسة. وفى موعظة بكنيسة شلسى القديمة سنة ١٩٩٢م، قال القس هاليبرتون:

«كان الشبح الماثل أمام ناظرى مور عندما خلع نفسه من أكبر منصب فى البلاد بلا شك هو شبح الطغيان. ففى وقت باكر من حياته كان يضع آمالاً كباراً فى هنرى الشاب. فقد كان والد هنرى المتجهم بمثابة تهديد بالنسبة لمور؛ إذ كان مور يرى فيه طاغية، ورحب بموته، كما رحب بالعهد الجديد، ورحب بالأمير المتعلم الذكى وزوجته الجميلة، ورحب باهتمامه بالموسيقى والرقص، وكذلك رحب بروحه الاجتماعية واحترامه الكنيسة التى زوّجته وتوّجته. ويشك المرء فى أن مور لم يساوم من أجل ولسى، ولم يحسب حساب سيطرة الكرادلة على الملك الشاب، بحيث يدفعونه إلى حروب لم يكن يقدر عليها، وإلى علاقات مالية لا يمكنه مراعاتها، وفى شكوك حتى حول زوجته وحول زواجه.

كان ولسى بلا شك غير أمين، يجمع ويكون مصادر الدخل والامتيازات؛ لكى تؤمن له دخلاً يتماشى مع برنامجه السياسى. ولكن الكاردينال، كما بدا واضحًا، قاد الملك إلى حافة تأليه السلطة. وعندما قالت أوروبا والبابوية «لا» بصورة قاطعة على مشروعات هنرى وطموحاته، قام هنرى بصبيانيته المعروفة بإعلان أن المملكة والكنيسة من حقه. كانت سلطته مطلقة؛ ولم يكن بوسع أحد أن يقول له «لا». ورأى مور فى هذا بداية تدمير الحكم. وخمس زيجات فيما بعد والاقتصاد فى حال يرثى لها، وقد تهدمت الأديرة وتفككت أواصر الكنيسة، والمثقفون يضجون

مطالبين بالإصلاح وشعب البلاد يشعل شرارة التمرد والثورة، وقدر لهنرى أن يموت بمرض الزهرى ولم يحقق جنونه شيئًا . وقد قاده الشك والغرور إلى إعدام أولئك الذين كان يمكن أن يكونوا أقرب حلفائه.

«وهكذا الأمر مع جميع الطغاة؛ وإذا كان هناك أى درس نتعلمه اليوم من حكمة توماس مور، فهو أن الطغيان لا يتحمل أى نقد، وأن الأنانية المقيتة للطاغية لا يمكن التغلب عليها سوى بطهارة الشهيد الذى يضحى بنفسه».

وأدى موت هنرى واعتلاء إدوارد السادس العرش إلى انطلاق عملية ترميم جذرية للمسيحية الإنجليزية. كذلك لم يكن الإصلاحيون راضين عن مزاعم توماس كروميل التاريخية بالاستمرارية بين كنيسة ما بعد حركة الإصلاح الدينى وكنيسة العصور الوسطى. وفضلوا ما صار هو الرؤية المقبولة (التى أشرنا إليها من قبل) أى أن كنيسة العصور الوسطى كانت قد تعفنت حتى قلبها. ولكن ديباجات كروميل وإعادتها لكتابة التاريخ الإنجليزى كانت ما تزال تمثل أساسًا صالحًا.

وقد وجد چون فوكس، أمير الدعاة البروتستانت كتبًا أخرى مفيدة فى عمليته لإعادة بناء الهوية الوطنية الإنجليزية، ولا سيما مؤلفات صديقه چون بالى؛ ذلك أن رواية كروميل للتاريخ كانت بها ثغرات أكثر مما ينبغى. وبشكل عام كان كتاب بالى عن تاريخ المسيحية الإنجليزية يعود إلى يوسف الرامى(*)، الذى قام، على ما يقال، بإحضار الإنجيل مباشرة إلى إنجلترا زمن المسيح، وليس عن طريق روما بالتأكيد. وفى الأسطورة التى شاعت فى العصور الوسطى كان يوسف هو الحارس على الكفن المقدس، وقد دفن فى جلاستونبرى. وثمة روابط قوية هنا مع أسطورة آرثر. فقد أورد الإنجيل أن يوسف كان رجلاً غنيًا وكان تلميذًا سريًا من تلاميذ المسيح قدم مقبرته الخاصة لدفن المسيح. وإعادة استخدام بالى ليوسف لخدمة روايته الخاصة عن التاريخ الإنجليزى لابد أنها تركت أصداء قوية فى الوعى الباطن الوطنى. فقد بدأ الأمر كله يكتسى قدرًا من المعنى.

(*) جاء فى إنجيل متى (٢٧ : ٥٧ ـ ٦٠) ولما كان المساء جاء رجل غنى من الرامة اسمه يوسف. وكان هو أيضا تلميذًا ليسوع. فهذا تقدم إلى بيلاطس وطلب جسد يسوع. فأمر بيلاطس حينئذ أن يعطى الجسد. فأخذ يوسف الجسد ولفه بكتان نقى ووضعه فى قبره الجديد الذى كان قد نحته فى الصخرة ثم دحرج حجرا كبيرا على باب القبر ومضى. ـ المترجم.

وهكذا كانت الكنيسة الإنجليزية قد تأسست على يد ملك واحد هو الملك لوسيوس وهو ملك كان معاصراً للإمبراطور قسطنطين (الذى اعترف بالمسيحية فى الإمبراطورية الرومانية): وبعد ذلك فإن قصة انجلترا إنما هى قصة صراع مستمر بين الملوك الوطنيين وشعبهم من ناحية، والغزاة الأجانب من مختلف الأنواع التى تمثل المسيح الدجال من ناحية أخرى. فقد كان الغزو السكسونى الوثنى، وبعثة القديس أوغسطين التبشيرية المفسدة فى نهاية القرن السادس، وحتى الغزو النورمانى وماجلبه من طابور مخادع من الأساقفة والرهبان كلها كانت فصولاً فى الحكاية الملحمية. وهكذا تم توضيح أن المسيحية الإنجليزية كانت هى أنقى الأنواع ؛ لأنها جاءت من المسيح ومن الحواريين مباشرة، وتم الحفاظ عليها على مدى القرون حتى وصلت إلى البروتستانت الإنجليز فى القرن السادس عشر لكى تبرز فى الضوء، ويتم إعلانها بوصفها العقيدة الأصلية التى قصدها المسيح. كانت تلك رؤية تتعلق بسفر الرؤيا الذى يتحدث عن النهاية، ومنحت الملوك الإنجليز دوراً مظفراً باعتبارهم المدافعين الشجعان عن التراث الوطنى المقدس ضد المضايقات المستمرة من جانب الحكام الأجانب، والمسيح الدجال البابوى على وجه الخصوص. وقد سار چون فوكس على خطى بالى بإخلاص، ويكتب چونز:

«كان مؤلفه الضخم « The Book of Martyrs » داخل نفس إطار الفكر الوطنى، فهناك الوصف التقليدى للبابوية بأنها قوة استبدادية تمثل سلطة المسيح الدجال وتهدد الاستقلال والحرية والدين الحقيقى للشعب الإنجليزى. وهناك أيضا التقرير بأن سمو الملك باعتباره نائب الرب الحاكم على الكنيسة والدولة كانت هذه هى الأعمدة القديمة التى بنى كرومويل عليها بناءه. والآن تمت إضافة عنصر جديد وأساسى إلى الأسطورة على أيدى بالى وفوكس».

وقد تبنى فوكس رؤية بالى للتاريخ الإنجليزى التى ترتبط بسفر الرؤيا: «أن التاريخ الإنجليزى بأسره قد أدى بفعل العناية الإلهية إلى حكم هنرى الثامن واليزابيث الأولى، اللذين عينهما الرب لقيادة الشعب الإنجليزى من أرض العبودية (أى السيطرة البابوية الأجنبية) إلى الحرية والنجاح الوطنى. . . هذا التضمين للتفسير البروتستانتى للتاريخ فى التاريخ الإنجليزى لخدمة حاجات رؤيته المرتبطة بسفر الرؤيا حول كتاب فوكس إلى فلسفة تاريخ. وقد أضفى هذا جاذبية صليبية

على الأسطورة الشعبية عن الماضى الإنجليزى. فقد صار بوسع البروتستانت الإنجليز آنذاك أن يصيروا جزءاً من الرؤية المرتبطة بسفر الرؤيا فى الحاضر وفى المستقبل. . . هذا التراث المرتبط بسفر الرؤيا كان مقدراً له أن يصبح أكثر أهمية بالنسبة للوطنية الإنجليزية».

والإشارة إلى موسى فى تشبيه هنرى «يقود شعب انجلترا للخروج من أرض العبودية» واضحة. ذلك أن أولئك الذين قادهم موسى الجديد كانوا خلفاء بنى إسرائيل القدماء.

وعند البداية وضعت هذه الأيديولوجية الوطنية الجديدة المستمدة من سفر الرؤيا انجلترا مع غيرها من الأمم البروتستانتية، باعتبارها زعيمة مؤيدة وملاذاً وحليفًا وعدوا لإسبانيا وفرنسا الكاثوليكية. وكان المختارون فى البداية من جنسيات متعددة. ولكن الأيديولوجية الهنرية (إذا ما كان للمرء أن يضع لافتة على الأفكار الكامنة خلف القوانين الإصلاحية التى سنها البرلمان فى ثلاثينيات القرن السادس عشر) سحبتها فى اتجاه تركيز خاص على دور انجلترا تستبعد الآخرين، مثلما فعلت الحكاية التاريخية التى دبرها بالى. وربما يكون أبناء الأمم الأخرى بين المختارين ولكن كانت هناك أمة مختارة واحدة فقط، ومكان واحد حيث تم حفظ الإنجيل الحقيقى فيه بفضل العناية الإلهية منذ زمن المسيح: هو انجلترا.

وهكذا فإن توماس برايتهام فى كتيب نُشر سنة ١٦١٥م - أى قبل خمس سنوات من نزول الحجاج على صخرة بلايموث، فى ماساشوستس، وزراعة هذه الأفكار فى التربة الأمريكية - أشار إلى المكان الخاص الذى أعطى للكنيسة الإنجليزية الإصلاحية فى خطة الرب التى يوضحها سفر الرؤيا قائلا: «لم يكن هناك أى مشابه ينافسها باعتبارها نموذجًا كاملاً لا نظير له». لقد كانت ديانة ما تزال محاصرة بالأعداء (فى عصبة مع روما بشكل مباشر أو غير مباشر) بحيث يتطلب الأمر شن حرب أهلية لكى تدافع عن نفسها فى مواجهتهم. وهكذا تقارب هذان التياران - حاجة هنرى إلى نوع من الاستقرار الدستورى، والرؤية البيوريتانية المستمدة من سفر الرؤيا - فى أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر. كانت أوجه الغموض والتناقضات، التى نجمت عن هذه الأفكار غير المتوافقة العديدة بالفعل

مصدر قوة على مدى فترة من الزمان - إذ نقض أحد جوانب التناقض يؤدى فى الحال إلى تألق الجانب الآخر فى قوة. وقد حدث أول ازدهار كبير لها، بحيث اتضح مدى نضج هذه الأفكار وكمالها فى تاريخ العالم، فى عهد الملكة الطيبة Bess التى تجسد انجلترا البروتستانتية. كما يكتب چونز:

«لم يكن هناك شىء يلهم اهتمام إليزابيث بالوطنية أكثر من فكرة أن قضية الديانة الحقة مرتبطة بصعود دولة السيادة الوطنية الإنجليزية تحت حكم ملكتها، التى عينها الرب لحماية الأمة البروتستانتية ضد شرور القوى الكاثوليكية مثل فرنسا وإسبانيا اللتين فى عصبة المسيح الدجال - أى البابوية. وقد أحس أحد قساوسة الملكة إليزابيث وهو الأسقف چون آليمر، بالثقة الزائدة بحيث أعلن أن الرب إنجليزى».

وچونز نفسه كاثوليكى ولكن نقضه للتاريخ البرسبتارى المزيف للمسيحية الإنجليزية الذى تم ارتكابه لأسباب سياسية يحظى بموافقة كبيرة من جانب اللاهوتى والمؤرخ إيان برادلى، وهو اسكتلندى على المذهب البرسبتارى. ويلاحظ برادلى أن الشكل القديم المفترض للمسيحية النقية التى زعم أوائل المصلحين البروتستانت أنهم ورثوها كانت إلى حد كبير هى ما يسمى الآن المسيحية الكلتية، وهو يقترح، لأنه لم يصادف أى استخدام للمصطلح قبل چون بالى صديق چون فوكس، أن نفس مصطلح «كلتى» كان اختراعًا بروتستانتيًا. ويقرر أن مسألة ما إذا كان هناك على الإطلاق شىء مثل الكنيسة الكلتية حسب الفهم الشائع اليوم من عدمه، إنما هى مسألة غير مؤكدة. وعلى الرغم من هذا فإنها برهنت على كونها فكرة مفيدة؛ لأنها كانت شاشة بيضاء يستطيع الناس أن يسقطوا عليها ما يريدون. ويقول برادلى إن المصلحين الدينيين الإنجليز الأوائل:

«أوجدوا الكنيسة الكلتية لتكون مؤسسة بروتستانتية تماما، وتتحدد ملامحها بالنقاء الإنجيلى والاستقلال التام عن روما. وبعيداً عن جلب مبادئ جديدة من القارة الأوروبية، كما يزعم خصومها، جادلوا بأن حركة الإصلاح الدينى كانت تمثل رجعة إلى قيم مسيحية بريطانية أصيلة فى عصرها الذهبى».

«وعملية إعادة كتابة التاريخ لكى تمنحه نسيجًا بروتستانتيًا جديداً كانت قد بدأت على يد وليم تايندال. ففى كتابه الذى يحمل عنوان The Obedience of

وكتابه : Practice of prolates اللذين كتبهما في منفاه بهولندا، Christian Man قدم صورة كنيسة بريطانية مستقلة كانت تقف بثبات فى وجه السيادة الرومانية خلال العصور الوسطى. وكان بطل تايندال المتصور من العصر الكلتى الذهبى هو جيلداس، الراهب البريطانى الذى عاش فى القرن السادس، والذى صوره فى صورة الشخص الذى يحمل نبوءة وأرسله الرب لكى يمنع أبناء بلده من التخلى عن النصوص المقدسة. وإذا ما تجاوزنا عن تعاطفه القوى مع كنيسة روما، فإن جيلداس قد صار بالنسبة لكثيرين من الكتاب التبريريين الذين روجوا لحركة الإصلاح الدينى نمطًا من الأنبياء البروتستانت يدعو أبناء بلده إلى التوبة ويبشر بالإنجيل الحقيقى.

وجهود تايندال الرائدة لإيجاد سابقة للبروتستانتية فى تاريخ الكنيسة البريطانية الباكر التقطها چون بالى وطورها. . . إذن أن أهم مؤلفاته . . . قدم صورة فارغة لكنيسة بريطانية بدائية ونقية لا تسيطر عليها روما. وإذا التقط أساطير جلاستو نبرى جعل تحول بريطانيا إلى المسيحية زمن الحواريين وبالتحديد بعثة يوسف الذى من الرامة سنة ٦٣م. . . وفكرة أن هذه كانت الطريق التى جاءت المسيحية بها إلى الجزر البريطانية أول مرة، قيض لها أن تبقى دعامة رئيسية فى التاريخ البروتستانتى والدعاية البروتستانتية على مدى المائة وخمسين سنة التالية تقريبا.

وتُنسب أسطورة لوشيوس إلى مؤلف الأساطير الذى عاش فى العصور الوسطى چيوفرى المامونى (وهو مؤرخ جمع أسطورة الملك آرثر و دونها فى القرن الثانى عشر) الذى يحكى أن المسيحية جاءت إلى انجلترا فى القرن الثانى بناء على دعوة ذلك الملك، الذى كتب إلى البابا إليوثيريوس يطلب منه إرسال مبشرين. وقد تم إسقاط الجزء الخاص بالبابا فى القصة. ولكن يقول برادلى:

«ثمة عدة أشخاص كبار فى كنيسة انجلترا بعد الإصلاح الدينى، وتحديدا ماثيو بيكر وچون چويل، أخذوا بحماسة مفهوم أن لوشيوس هو أول ملك مسيحى لانجلترا، وجادلوا بأن هذا يوضح أن الكنيسة البريطانية كانت منذ البداية الأولى مؤسسة وطنية تأتى فيها المبادرات والقيادة من الملك وليس من البابا. . . ومهما كانت اختلافاتهم حول كيف ومتى وصلت الديانة إلى هناك فإن هناك اتفاقًا بين

المؤرخين البروتستانت على أن الكنيسة البريطانية كانت فى الأصل مستقلة وحرة عن النفوذ الرومانى».

وقد حدث التلوث المميت بالبابوية مع وصول أوغسطين سنة ٥٩٧م حسبما يواصل برادلى قصته، والذى كان البابا جريجورى الكبير قد خوله السلطة لأن يرسى هيراركية كنسية جديدة. ترتكز على كانتربورى، كان لابد للأساقفة البريطانيين الموجودين أن يخضعوا لها. وقد صار سبّ أوغسطين علامة مميزة فى تاريخ الكنيسة البروتستانتية على مدى القرنين السادس عشر والسابع عشر. وكان نتيجة لهذه البعثة، كما يقول المؤرخون البروتستانت، أن خضعت المسيحية البريطانية للمرة الأولى لسلطة روما، وساومت الشخصية النقية لعبادتها ومعتقداتها بقبول عبادة الأصنام الرومانية وممارساتها مثل الشمعدانات والملابس والذخائر المقدسة التى لم تكن معروفة حتى ذلك الحين.

ولكن على نحو ما يوضح برادلى لم تكن بروتستانتية المسيحية الكلتية القديمة (إذا ما كان هناك شىء من هذا القبيل) واضحة للكلتيين القدماء. أولا لأن ديانتهم كانت رهبانية إلى حد كبير، والرهبنة ليست من سمات البروتستانت. وكانوا ملتزمين بالخلاص بالديانة وحدها، وبالنسبة لهم كان الوصول إلى السماء عملاً يمتد طول العمر. وكانت المسيحية الكلتية ترتكز إلى حد كبير على تبجيل القديسين المحليين، وهم عادة من الرهبان أو الأساقفة أو كليهما، وهى عبادة كانت تنشأ بعد موتهم، وفيها صلوات تُتلى لهم، وكانت مزاراتهم ورفاتهم محل تبجيل، ويتم تكريس آبار مقدسة بأسمائهم، وتنسب كثير من المعجزات إلى تدخلهم فى السماء. وبدا أن عبادة القديس الكلتى مثل سانت بريجيت متأثرة بقوة بمثال مريم العذراء. وكان فيها مذهب كاثوليكى عن الحضور الحقيقى والمطهر. وهذا كله بالنسبة لأى بروتستانتى مخلص كان سيبدو ضربًا من الكفر. وكذلك لم يتجاهل القادة المسيحيون روما. ففى مجمع هويتبى سنة ٦٦٤م، قبلوا أن من سلطة البابا تثبيت تاريخ عيد الفصح، كما قبلوا أموراً أخرى متنوعة. والواقع أنه على الرغم من أن برادلى لم يضع هذه الرابطة فإن

المسيحية الكلتية تبدأ فى الظهور بشكل مماثل لكاثوليكية العصور الوسطى كما يصورها إيامون دوفى، فى كتابه The Stripping of The Altars.

ومع هذا فإن حمولات أرفف كاملة من الكتب تمت كتابتها منذ القرن السادس عشر فصاعدا لتطوير أو مراجعة النظريات التى قال بها بالى وباكر وجيول، لكى تبين مثلا، أنه إذا لم يكن يوسف الرامى قد جاء بالمسيحية إلى بريطانيا، فلابد إذن أن القديس بولس الرسول، وأن المسيحية الأيرلندية كانت پروتستانتية فى الأصل، أو أن القديسين الكلت القدماء كانوا فى الحقيقة من الپريسبتاريين الاسكتلنديين الطيبين. وأى دليل على العكس من ذلك كان يتم تجاهله ببساطة أو يتم استبعاده ومثل هذا الشرح يفترض أن الاستخدام الكلتى لكلمة صلاة القداس غير الپروتستانتية للدلالة على الصلاة الجماعية لم تكن مشتقة فى الحقيقة من الصيغة اللاتينية Itemissa التى كانت تختم بها صلاة القداس الكاثوليكية، ولكنها كانت تعديلاً لكلمة Mistletoe التى كانت تستخدم فى الطقوس الوثنية وأخذت فى المسيحية الكلتية حينما تم القضاء على الوثنية.

ومن وجهة النظر الإنجليزية فإن الاستنتاج الأكثر أهمية الذى نخرج به من إعادة كتابة التاريخ هذه، هو أن الرب قد حفظ بعنايته العقيدة الپروتستانتية منذ زمن المسيح، والتى هى الآن، تحت قيادة الملوك والملكات الپروتستانت (بدءاً من هنرى) قد أعيدت إلى مكانها الصحيح. وفى ضوء هذه الحقيقة المدهشة، كيف كان يمكن وصف انجلترا بصفة أخرى غير الشعب المختار، وبأنها كهنة ملكيون؟ وأنها بالطبع هى الأمة الوحيدة.

* * *

(٥)
أساطير ومزيدٌ من الأساطير

لكى نفهم عقلية إسرائيل الجديدة من الضرورى أن نتفحص بقدر أكبر من الدقة ما يحويه التاريخ اليهودى الباكر؛ لكى نرى بالضبط ما الذى اعتبره الإنجليز والأمريكيون قصتهم الخاصة. لكى نرى، كيف فكروا فى أن الرب قد تعامل مع أسلافهم ومن ثم كيف سيتعامل معهم. وليس أقل أهمية لأن العهد القديم يتضمن نسقًا شاملاً من التعاليم الأخلاقية التى تبناها الرواد البروتستانت عن الديموقراطية الأنجلو سكسونية باعتبارها قابلة للتطبيق عليهم.

وعلى أية حال فإنه ربما يكون ما يُنصح به أولا أن نأخذ حفنة من الملح من علماء الآثار، ولاسيما علماء الآثار المصرية؛ إذ إن أهمية تاريخ العهد القديم للفهم البروتستانتى الذاتى لا تتمثل فى أنه كان حقيقيًا، ولكن بسبب الظن فى أنه كان حقيقيًا. . وبسبب هذا المبدأ يعتمد هذا الفصل بشكل كبير على الطبعة المعتمدة من الكتاب المقدس، وهى الطبعة المعروفة فى أمريكا تحت اسم طبعة الملك چيمس. وثمة ترجمات أكثر دقة موجودة على الرغم من أنها ليست على نفس درجة جودة النثر الإنجليزى الموجود فى الطبعة المعتمدة. ولكن حتى نهاية القرن التاسع عشر كانت الطبعة الوحيدة التى تعودت عليها الغالبية العظمى من سكان بريطانيا وأمريكا هى طبعة سنة ١٦١١م التى عُينت للقراءة فى الكنائس بأمر من الملك چيمس الأول. ولأننا نهتم هنا أساسًا بما ظنوا أن الكتاب المقدس قد قاله، بدلا من الاهتمام بما قيل فعلا، فإن هذه هى الطبعة التى سوف نقتبس منها. وثمن ذلك هو قدر أقل من الوضوح فى بعض المواضع؛ ولكن إذا لم تكن واضحة تمامًا لنا المعانى التى يحملها النص، فلابد إذن أنها لم تكن واضحة للقرّاء فى القرون السابقة.

والدليل الأثرى يدل على أن كثيرا من الحكايات فى العهد القديم لا تكاد تتصل

بالحقيقة التاريخية على الإطلاق، أو أنها فى أفضل الأحوال مبالغات ضخمة ونفخ كبير فى حوادث صغيرة . ولا شك في أن التاريخ الشفاهي يصير أفضل عند الحكي، وكما حدث عدة مرات منذ ذلك الحين، فإن الحكاية الأصلية للأمة الجديدة كانت تفترض أهمية ما يمكن تبريره تاريخيا. وكما لاحظ إرنست رينان سنة ١٨٦٣م فى كتابه الشهير Life of Jesus « ليس هناك شيء عظيم تأسس لم يرتكز على أسطورة» ؛ ذلك أن الأمم تحتاج إلى الأساطير وتبحث عن الحوادث التاريخية لتكون المادة الخام التى تصنعها منها. والعملية الإبداعية بأيدى الشعراء والقصاصين والرواة، تكمن مهارتهم فى الاستحواذ على الخيال، وليس فى سيطرتهم على الحقائق الجافة. والأساطير تعمل كأفضل ما يكون، على أية حال، إذا ما كان أولئك الذين يتلقونها يصدقونها باعتبارها صادقة بالفعل. والمشكلة هى أنه بينما تهلل مثل هذه الأساطير للأمة التى ينتمون إليها، فإنها غالبًا ما تفعل ذلك بالحط من شأن الأمم الأخرى. وهكذا تتحول الأساطير بسهولة إلى بغضاء طويلة الأمد تجاه جيرانهم، وإلى انحياز طويل المدى أو كراهية لا أساس لها من الحقيقة. وليس هذا موضع التاريخ الخالى من الأساطير، فليس هناك شيء من هذا القبيل، ولكنها حجة فى عملية إعادة الفحص اللانهائية لقصة كل أمة؛ لكى تتقدم بها أقرب صوب الحقيقة، والوعى العام بأن الحقائق البديهية، لا يجب الثقة بها بشكل مطلق.

وثمة مشكلات تاريخية مشابهة هنا. هل حدث أبدا أن حاز العبرانيون عملاً يعتبر سندا للقب صنع فى السماء للأرض التى تسمى أرض كنعان؟ هل حدث أبدا أن اضطهد المصريون القدماء العبرانيين؟ على الرغم من الجهود المضنية التى بذلها الأثريون فى القرن التاسع عشر للبرهنة على قصة العهد القديم. حتى سيجموند فرويد كانت له يد فى مقالته Moses and Monotheism . فليس هناك أثر فى الكتابات المصرية القديمة عن وجود عدد كبير من العبرانيين قبل الأحداث الواردة فى سفر الخروج، كما لم يرد أى ذكر لحادث الخروج نفسه. أما بالنسبة لكنعان فإن الأدلة الأثرية توحى أن عملية الاستيطان كانت تدريجية للغاية. وليس ذلك نموذج الغزو المفاجئ الذى قامت به إحدى القبائل لأخرى على حد ما هو وارد فى العهد القديم. وثمة حقيقة لم تنقلها حكايات الكتاب المقدس وإنما كشفت عنها الأدلة الأثرية، هى أن الكنعانيين كانوا مجتمعا أكثر تقدما وحضارة من العبرانيين. ومن

المحتمل أن الكنعانيين كانوا هم أول من استخدموا الحروف الهجائية المنظمة فى لغتهم المكتوبة.

وفى انجلترا القرن التاسع عشر، تأسست جمعية الاستكشاف المصرية، أشهر رعاة العالم لعلم الآثار المصرية، للبحث عن آثار مدينة فيثوم. مدينة الكنوز ومدينة رمسيس، التى قال الكتاب المقدس (خروج ١ : ١١) إن العبيد العبرانيين قد بنوها. وموضع هاتين المدينتين معروف. فرمسيس التى ذكرها الكتاب المقدس من الواضح تماما أنها بى رمسيس، التى بنيت لتكون عاصمة للفرعون العظيم رمسيس الثانى. ولكن لا يوجد دليل على أن اليهود ساعدوا فى بنائهما. وعلى أية حال فإن هذا لا يغير من الإمكانية الكامنة بأن فرعون الخروج كان هو أعظم الفراعنة جميعا. ولا حاجة بنا إلى القول بأنه ليس هناك دليل على الرواية التى أنتجتها هولى وود على أن العبيد اليهود هم الذين بنوا الأهرامات، إذ إن تاريخها يرجع إلى أكثر من ألف سنة سابقة.

كما أن لا يوسف الذى صار وزيراً للفرعون بعد أن فسّر أحلامه تفسيرا صحيحًا ولاموسى، الذى ارتقى أيضا مرتبة عالية بعد أن تبته ابنة فرعون، يظهرا فى التاريخ المصرى المسجل. فقد كان رحيل بنى إسرائيل من مصر وعبور البحر الأحمر محل تجاهل، على الرغم من أن بعض الأوبئة التى سبقت الخروج تتصل فعلا بحوادث طبيعية شائعة الحدوث، مثل فيضانات النيل الكارثية التى يملك الأثريون أدلة عليها. وهو أمر أكثر من التخمين أنه كان يمكن أن يكون هناك بعض الصلة بين وجود العبرانيين (الموحدين) والعبادة التوحيدية التى عاشت زمنًا قصيراً للفرعون إخناتون حوالى القرن الرابع عشر قبل الميلاد. وأحسن دليل قوى هو التشابه بين أنشودة آتون والمنسوبة إلى إخناتون نفسه؛ وآتون وهو الشمس، هو أيضا إله واحد خلق العالم والمزمور رقم ١٠٤ فى العهد القديم على سبيل المثال:

«تجعل ظلمة فيصير ليل. فيه يدب كل حيوان الوعر. الأشبال تزمجر لتخطف وتلتمس من الله طعامها» (مزامير ١٠٤ : ٢٠ ـ ٢١):

وتقول أنشودة آتون:

«حينما تجلس أنت فى الأفق الغربى يلف الظلام أرض العالم مثل الموت. . . ويخرج كل أسد من مكمنه».

هذه التشابهات التى يصفها عالم الآثار المصرية چون رومر بأنها واضحة ودقيقة

ليست موجودة فقط فى مثل هذه التشابهات، ولكن أيضا فى تتابع الأفكار. والخلاصة هى أن كاتب المزمور كان يعرف أنشودة آتون أو صيغة منها، واتخذها نموذجا. ويوحى هذا بأن الإسرائيليين كانوا مدركين تماما بالفترة التوحيدية القصيرة فى تاريخ مصر. وفضلا عن ذلك، ربما كانت هذه معرفة معاصرة حيث إن الفراعنة التالين اعتبروا إخناتون منشقا ومخالفا وبذلوا ما فى وسعهم لمحو ذكراه. كما يوحى أيضا بأن العبرانيين كانوا قادرين على قراءة النصوص الهيروغليفية: إذ إن أنشودة آتون محفورة على مقبرة الفرعون آى بتل العمارنة فى مصر الوسطى.

ومع هذا فإنه دليل غير جازم، والإشارة الوحيدة التى لا جدال فيها إلى بنى إسرائيل فى أى نص مصرى قديم، هى ما يسمى «لوحة إسرائيل» فى المتحف المصرى بالقاهرة، والتى يبدو أنها تصف الإسرائيليين على أنهم تبددوا شذرا على يد الفرعون مرنبتاح خليفة رمسيس الثانى، ربما فى كنعان، بيد أنه لا توجد قصة كهذه فى العهد القديم.

وحتى مع الأخذ فى الاعتبار المبدأ القائل بأن كل محارب لابد وأن يبالغ فى حجم انتصاراته ولا يسجل هزائمه (أو يحولها إلى انتصارات أيضا)، فمن المذهل كيف أن الهبات الكبرى التى وصفها الكتاب المقدس لم تترك على الأرض سوى آثار ضئيلة، فهل حدثت فعلاً بالمرة؟ وما تلى الهروب من مصر حسبما حكى فى سفر الخروج هو التيه الإسرائيلى فى البرية على مدى أربعين عامًا فى سيناء، وهو أمر لم يكن من الممكن أن يترك وراءه أى دليل أثرى. ولكن ما حدث بعد ذلك كان لابد وأن يترك أثرًا. وحسبما يجادل رومر:

«على النقيض من القصة التى أوردها الكتاب المقدس عن أن جيشًا إسرائيليًا متوحشًا قد دمر مدن كنعان القديمة الشريرة وأسس دينا جديدا ووطنا جديدا مكانها، فإن علم الآثار يوضح أن حقيقة التغير بين عصر البرونز وعصر الحديد فى فلسطين، كان تحولا تدريجيا تم الحفاظ فيه على أشكال العبادة التقليدية، كتعبير قوى على علاقة الإنسان بالمقدس، سواء مع يهوه الذى ذكره الكتاب المقدس أو آلهة كنعان القديمة... ولذلك فإنه على الرغم من أن الكتاب المقدس يؤكد على الجدة والتفرد الذى يتميز به يهوه، فإن علم الآثار يكشف عن أن الفروق بين الطقوس التى ذكرها الكتاب المقدس لعبادته وعبادة كنعان القديمة كانت طفيفة.

والحقيقة أن هذا كان بلا شك هو السبب فى أن الأنبياء هاجموا الآلهة القديمة على مر القرون، حتى لا يتم ذوبان الديانة الجديدة فى الأساليب القديمة».

وهى نقطة تتشابه مع النقطة التى أوردناها بالفعل للربای لويس جاكوبس. وعلى أية حال فإنه ينبغى ملاحظة أن الربى جاكوبس ظل وقتا طويلاً على خلاف مع السلطات اليهودية الأرثوذوكسية، بسبب تساؤله عمّ إذا كان موسى هو الكاتب الحقيقى للأسفار الخمسة الأولى من الكتاب المقدس (التوراة)؟.

وهنا يحل المسألة تماما. فإذا كان الكتاب المقدس تاريخا، فأى نوع من التاريخ هو؟ والإجابة التقليدية بين اللاهوتيين اليهود والمسيحيين على السواء خارج معسكرات الأصوليين فى كل من الديانتين هى أنه تاريخ الخلاص، ولا يبدو أن معظم الناس (بما فى ذلك غالبية أتباع الديانتين) قد سمعوا تعريفا مثله. إنه سرد قصصى بؤرته الأساسية العلاقة النشطة بين البشرية والرب. والعهد القديم كله تقريبًا لا يهتم بعلاقات الرب مع البشرية جمعاء ولكن بجزء صغير منها، مجموعة من قبائل الشرق الأوسط تزعم انحدارها من صلب أب واحد، هو إبراهيم. وتظهر القبائل والأمم الأخرى وتختفى حسب دورهم فى القصة الرئيسية. ويدخل الرب فى القصة؛ لأن معظم نجاحات وإخفاقات هذه القبائل منسوبة إلى تدخله، سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة. وفى بعض الأحيان تسير الأمور معهم سيراً حسنًا؛ وفى بعض الأحيان يتركها تسوء. وعلى طول الطريق يتعلمون المزيد عنه، وتصبح أفكارهم الدينية أكثر حذقًا ودقة، وأشد تعقيدا وأكثر إثارة. والحقيقة أيضا أنهم كانوا على طول الطريق يلتقطون تأثيرات من قبائل أخرى، وديانات أخرى، وبعض هذا الحذق ربما جاء من هذه المصادر الخارجية. بيد أنهم نادرا ما يعترفون بهذه الحقيقة إذا اعترفوا بها على الإطلاق، كما لو أن فعل ذلك قد يقلل من تفرد علاقتهم مع الرب.

وما يزيد من تعقيد مفهوم العهد القديم باعتباره تاريخا للخلاص هو أن الكثير منه يروى كما لو كان تاريخا حقيقيا، حسبما نفهم المصطلح. وما يزال من خصائص الأصوليين، لاسيما فى الولايات المتحدة، أن يتعاملوا معه كما لو كان حقيقيا بشكل حرفى وكما لو أنه زعم أنه سجل علمى. إنه ملىء بقصص من عينة أن X فعل Y لـ Z وكانت النتيجة ABC. والأسلوب الصحيح لمقاربة تاريخ الخلاص الذى يتخفى تحت قناع التاريخ الحقيقى هو بحفنة من الملح طالما أن الحقائق

هي موضع الاهتمام، ولكن بعقل مفتوح فيما يتعلق بما كان الكاتب يحاول حقًا أن يقوله. وبعد ثلاثة آلاف سنة من الزمان لا تكون للتفاصيل الدقيقة لما فعله X لـ Z مهمة على الإطلاق. أما قد يكون ما يزال مهمًا فهو لماذا فعلها X، ولماذا كان رد فعل Z على هذا النحو، وماذا كان غرض الرب وراء هذا كله؟ هل كانت ABC هي النتيجة التي أرادها؟ وإذا كان الأمر كذلك فلماذا؟ وبالنسبة لنا ـ مع افتراض أننا في سياق عقلي يجعلنا نطرح مثل هذه الأسئلة ـ فما الذي ينبئنا به هذا؟

وثمة معنى أبعد يمكن استخراجه إذا ما كنا مهتمين بتعاملات الرب مع هذه المجموعة المخصوصة من القبائل السامية، والسبب الدقيق هو أنها كانت أو يظن أنها كانت مختارة بشكل خاص، لأننا إذا كنا جزءًا من جماعة تشعر أيضا أنها مختارة بشكل خاص، بل والأكثر من ذلك إذا كانت تلك الجماعة تعتبر نفسها بمثابة الخليفة للجماعة الأصلية، فإن بوسعنا إذن أن نتعلم من التجربة التي مرت بها تلك الجماعة الأولى الكيفية التي يتوقع الرب من جماعتنا أن تتصرف بها. بل إننا يمكن حتى أن نتنبأ بالمستقبل، لأنه بينما لا يعيد التاريخ الحقيقي نفسه، فإن تاريخ الخلاص كان من عادته أن يعيد نفسه. ولكي تزيد من تعقيد المسألة فإن هذه الممارسة سوف تتضمن الطمس المستمر للخط الفاصل بين التاريخ الحقيقي وتاريخ الخلاص.

هل كتب موسى أسفار التوراة الخمسة؟ نعم، إذا ما طرح السؤال داخل قواعد تاريخ الخلاص ـ وبعبارة أخرى فإن تاريخ الخلاص يدعونا إلى قراءة الأسفار الخمسة الأولى من الكتاب المقدس كما لو كانت قد كتبت بيد موسى. ولكن لا إذا ما جرى اعتبارها تاريخا حقيقيا؛ لأن الإجابة بنعم لاتناسب الحقائق التي كشف عنها التاريخ الحقيقي (كما أنها لاتفسر لنا كيف أن كتابًا كتبه موسى يصف موت موسى نفسه).

كل هذا يغير من الطريقة التي تتم بها قراءة الكتاب المقدس وتفسيره. فبالنسبة لأولئك الذين يريدون للكتاب المقدس أن يكون إما صحيحًا أو مزيفا، دون التروي عند هذه الدرجات التي يتدرج بها المعنى، يكون هذا غير مشبع بالمرة. وهذه مشكلة ضاغطة بالنسبة للبروتستانتية الحديثة، على نحو ما سنناقشه فيما بعد. فهل المسيحيون المحدثون، مثلاً، ملتزمون بالاعتقاد بأن الرب أعطى الأرض الموعودة للعبرانيين؟ وإذا ما وضعنا في اعتبارنا الحصاد النهائي ـ عودة اليهود إلى ما يزعمون أنه أرض أسلافهم في القرن العشرين كانت سببًا في صراع دموي مطول في الشرق الأوسط ـ فإن هذا ليس سؤالا أكاديميا بأي حال من الأحوال. بيد أن المسيحية الحديثة ليست مجهزة جيدًا للإجابة عنه.

وتتعقد المقارنة المنهجية بين تاريخ بنى إسرائيل القدماء والمنافسين الرئيسيين على لقب «إسرائيل الجديدة» أى انجلترا وأمريكا بسبب عدة عوامل. أولا: أن النظام الزمنى لتتابع الأحداث مختلف. فإذا ما تتبعنا توالى المواقف والأحداث التى ورد ذكرها فى العهد القديم، بحثًا عن مواقف وأحداث فى التاريخ الإنجليزى والأمريكى كان مفهوما زمن حدوثها أنها يمكن مقارنتها بمواقف وأحداث العهد القديم، فإن التتابع الزمنى لابد وأن يكون مختلفا. فمثلا فى الكتاب المقدس جاء موسى قبل جدعون. أما فى التاريخ الأنجلو أمريكى فإن أوليفر كرومويل الذى يقرن بجدعون فى القرن السابع عشر، على حين أن چورج واشنطن الذى يقرن بموسى كان فى القرن الثامن عشر، وهو ما يعنى بالمصطلح التاريخى النظام الخطأ، ولكن لأن اهتمامنا منصب أساسًا على التاريخ الخلاصى وليس على التاريخ كما حدث بالفعل، فانه يكون من الأصوب أن نقتفى تتابع الأحداث فى العهد القديم، وبالتالى نقبل أن هذا يعنى رواية التاريخ الأنجلو أمريكى فى أسلوب قد يبدو مربكًا، خارج نظامه الزمنى التتابعى (الكرونولوچى) ؛ولذلك فلأن موسى جاء قبل جدعون، فإننا سوف نتناول چورج واشنطن (بمنطق التنميط) قبل أن نتناول كرومويل.

هذا التناول غير المتسق زمنيا يمكن تبريره أكثر بحقيقة أن تاريخ الخلاص له نموذج دورى خاص به. وربما يكون هناك تقدم من دورة إلى دورة تالية. فتاريخ الخلاص لا يعيد نفسه تماما أبدا. ولكن النماذج المتشابهة تظل تتوارد. وهكذا فإن الحرب الأهلية الأمريكية قد تم التنبؤ بها من جانب هاريت بيشر ستو باعتبارها عقابًا إلهيا جزاء الشر الأمريكى الذى تمثل فى السماح بالعبودية، والنكسات التى عاناها البريطانيون على الجبهة الغربية فى الحرب العالمية الأولى، كانت فى نظر أسقف لندن عقابًا إلهيًا جزاء التهاون البريطانى فى المسائل الدينية والأخلاقية. هذان المثالان، واللذان تفصل بينهما أكثر من ستين سنة، وليست بينهما أية علاقة سببية أيا كانت، إنما هما مثالان على الفكرة نفسها. أن الرب يعاقب شعبه المختار عندما يسىء السلوك. وحقيقة أن أمريكا ما قبل الحرب الأهلية وبريطانيا أبان الحرب العالمية الأولى لا يمكن أن تكون كلتاهما سويا شعب الله المختار، على الرغم من أن هذا الاعتبار قد يسوقنا إلى استنتاج أنه فى الحقيقة لم تكن أيتهما شعب الله المختار، وتلك الحقيقة لايجب أن تضللنا، فنحن نتعامل مع ما اعتقده الناس عن أنفسهم وكيف أثر ذلك على أفعالهم فى الزمان، وليس مع ما نعتقده نحن عنهم الآن.

يبدأ الكتاب المقدس بحكاية مختصرة عن خلق العالم. والسفر الأول يصف كيف تم خلق كل شيء في ست فترات أو أيام. شهد اليوم الأخير منها وصول الإنسان الرجل (وبعده مباشرة المرأة) وعاشا حياة زوجية هانئة وبراءة أصلية حتى أغواهما الشيطان، وخرقا الناموس وطردا من جنة عدن، التي كانت موطنهما الأصلي الكامل. والفعل الرمزي للعصيان هو أكل تفاحة من شجرة معرفة الخير والشر، والتي جاءت منها عبارة الفاكهة المحرمة Forbidden Fruit لتدخل اللغة الإنجليزية. هذا العصيان وعواقبه عرف باسم السقوط. وكل البشر منحدرين من صلب هذين الزوجين، على نحو ما يؤكد الكتاب المقدس، وهي إحدى المعلومات الواردة في الكتاب المقدس التي أيدها البحث الحديث في الجينات الوراثية. ففي العصور الحديثة تؤخذ السلالة العامة للبشرية على أنها مناقشة وحجة لاهوتية ضد العنصرية، ولكن لايبدو أن ذلك هو ما حدث مع المفسرين المسيحيين الذين فسروا الكتاب المقدس قبل القرن العشرين بزمن طويل. وعلى أية حال، فإن البحث في الجينات الوراثية لا يعطي أي وزن علمي لنظرية السقوط نفسها.

وكانت نتيجة تعدي آدم وحواء وتجاوزهما الكارثي هي أنهما وكل ذريتهما قد وصموا بالخطيئة (الخطيئة الأصلية). **ولأن القصة الأصلية تقول إن حواء كانت هي التي أغوت آدم، فإن المعالجة اليهودية المسيحية للأنوثة كانت دائما تتسم بعدم الثقة. وفي حالات إساءة السلوك الجنسي يتمثل الانحياز الكامن في القول بأن المرأة دائما هي مصدر الغواية، والرجل ضحية الإغراء: و بالتالي تتحمل المرأة النصيب الأكبر من اللوم. وكانت إحدى العقوبات القاسية وغير العادية التي أنزلها الرب على النساء نتيجة للسقوط هو الألم الشهري الذي يعتريهن نتيجة الحيض، والتي ما تزال تسمى (في أوروبا) اللعنة لهذا السبب.** إنه من خصائص الصيغة اللوثرية والكالفينية من البروتستانتية أن تأخذ الخطيئة الأصلية على أنها تعني أن البشرية كانت مجردة تماماً وغير قادرة على إنجاز أي فعل ذي جدارة، فالإنسانية خاطئة في صفاتها كما أنها خاطئة في الأفعال الفردية، ومن ثم فإن البشرية التي لم تكفر عن ذنوبها مدانة ومحكوم عليها بالجحيم، ولا يمكنهم فعل شيء حيال ذلك، فالرب وحده الذي يمكنه أن يغير الحكم. وقد اتخذت الكاثوليكية والبروتستانتية المتحررة رؤية أكثر لطفا للإنسانية، ولا حاجة بنا إلى القول بأن النصوص الواردة في الكتاب المقدس يمكن اقتباسها لتبرير كل من وجهتي النظر. (بيد أن ذلك لا يجب أن يقودنا

منطقيا لاستنتاج أن كلاً منهما كانت غير حقيقية. فالطبيعة الإنسانية أكثر تعقيداً من ذلك، وكذلك اللاهوت المسيحى). وقد اصطدم وصف الكتاب المقدس بنظريات تشارلز داروين فى القرن التاسع عشر صداماً مدوياً؛ مما أحدث ضرراً دائماً على الإحساس العام بإمكانية الاعتماد على الكتاب المقدس بوصفه تاريخاً. والآن فقط يمكن التمسك بالحقيقة الحرفية للكتاب المقدس وإنكار التطور تماماً، وما يزال هناك عدد كبير من الأمريكيين يؤمنون بنظرية الخلق التوراتية. وما تزال عقيدة السقوط والخطيئة الأصلية تضع مشكلات خطيرة ينبغى على المسيحية الحديثة (أى ما بعد الداروينية) أن تحلها بشكل نهائى. ولكن هناك مشكلات لم يتم حلها عن أصول البشرية ليست أقل خطورة بالنسبة للداروينية. ومن السابق لأوانه أن يزعم أى من الجانبين أنه حقق نصراً كاملاً، والمرجح أن الحكمة سوف تستقر فى نهاية المطاف على شىء يصالحهما سوياً. وخارج معسكرات الأصوليين، بل وفى داخل هذه المعسكرات إلى حد ما، فإن الحقيقة العريضة لنظرية داروين تلقى الآن قبولاً عاماً. وسيكون من الإنصاف القول بأن العلم عندما قوّض رواية الكتاب المقدس عن الخلق من خلال الداروينية، فإنه لم يلبث أن أعاد لها بعض المصداقية من خلال نظرية القرن العشرين عن الانفجار الكبير، وبعدها مع ما يسمى بالمبدأ الإنسانى (الذى يقرر أن الكون يبدو أنه كان مبرمجاً بشكل مسبق لتطور الحياة النهائى).

فبعد السقوط، بدأ آدم وحواء عائلتهما ذات العدد الكبير بابنين هما قابيل وهابيل، اللذان تشاجرا فى مشاجرة دفع هابيل حياته ثمناً لها. وقد طرد قابيل، وحكم عليه بلبس علامة دائمة (حملها نسله أيضا من بعده). وقصة قابيل القاتل الأول كانت رائجة جدا بين المبشرين البروتستانت، على الرغم من أنه كان هناك خلاف بينهم حول تفسيرها النمطى. فقد رأى البعض قابيل بوصفه النمط العتيق للكاثوليكية الرومانية، أو بعبارة أخرى مصدر كل القلق من وجهة النظر البروتستانتية؛ وزعم آخرون أنهم يعرفون أن «العلامة الشهيرة» إن هى إلا البشرة السوداء فى الواقع، بحيث إن قابيل كان الجد الأعلى للأفريقيين السود. كذلك استخدمت معاملة قابيل لتبرير تحديد المنبوذين أو فرزهم. وبصرف النظر عن فعل العصيان الأصلى من قبل آدم وحواء، فإن قتل قابيل لأخيه هو الخطيئة الأولى التى سجلها تاريخ الكتاب المقدس، والنمط العتيق لكافة الخطايا التى ارتكبت منذ ذلك الحين. وحقيقة أن الرب لم يطلب موت قابيل وأمر بأنه لايجب أن يتعرض

للمضايقة ربما بدت حجة قوية ضد عقوبة الإعدام، بيد أن البيوريتان الأصليين، الذين كان يروق لهم الشنق من حين لآخر، لم يكونوا يبحثون عن مثل هذا الإلهام. وحقيقة أن الذى قتل هابيل هو أخوه قدمت ذخيرة قوية من الكتاب المقدس ضد العدو فى الداخل، وغذت الخوف من المؤامرات والدسائس الذى كان من سمات البروتستانتية التى تعتمد على الكتاب المقدس فى عز أيامها - لاسيما عندما انقسمت العائلات بسبب الحرب الأهلية.

وإذا كانت لقابيل ذرية، فإن الكتاب المقدس لا يشرح كيف عمروا بعد الطوفان الذى هو الحادث التالى الكبير فى مايرويه الكتاب المقدس عن فترة ما قبل التاريخ. وهكذا يئس الرب من الفوضى والتشويش الذى كان نسل آدم وحواء يفعلونه فى الدنيا لدرجة أنه قرر أن يبدأ من جديد. وكان للطوفان أن يقتل كل شىء حى فيما عدا أولئك الذين تم إنقاذهم بالسفينة التى بناها نوح، والذى كان هو الإنسان الوحيد الطيب بين كل الحفنة البشرية السيئة. وقد وجد المبشرون مادة غنية فى هذه القصة. ويعتبرها الباحثون الآن تجميعا لمختلف الملاحم والأساطير البابلية، باستثناء العامل الجديد القائل بأن نوح تم إنقاذه؛ لأنه كان رجلا صالحا «يسير مع الرب». وربما تكون القصة وربما لاتكون، على صلة بحادث حقيقى ما فى الإقليم الذى نشأت فيه القصة أصلاً، والتى تحددت الآن بنهرى دجلة والفرات فى العراق حاليًا.

والاستنتاج الذى نخرج به من قصة نوح هو أن الرب يعاقب الأشرار بالتدمير ولكنه ينقذ الصالحين الباقين - وهو موضوع منتظم فى نصوص الكتاب المقدس اللاحقة. فكرة أن الباقى قوى - وكان الباقون من اليهود هم الذين نجوا من الأسر البابلى، وقد رأى المسيحيون الأوائل أنهم هم الباقون من بنى إسرائيل والذين قدر لهم أن يكونوا إسرائيل الجديدة. ومن الواضح أن مستوطنى نيوإنجلاند كانوا يرون فى أنفسهم بقية صالحة أخرى. نجوا من الدولة الخاطئة التى كانت هى إنجلترا تحت حكم جيمس الأول وشارل الأول. وفى العصور الحديثة ما يزال البروتستانت فى شمال أيرلندا يفهمون وضعهم على أنهم البقية المؤمنة بهذا المعنى الوارد فى العهد القديم، وهم مخلصون لنموذج مثالى خيالى عن بريطانيا البروتستانتية تستحوذ على خيالهم، ومايزال التنميط على نمط شعب الرب أحد ملامح التبشير البروتستانتى فى أيرلندا الشمالية.

وكان اللاهوت المسيحى التقليدى يرى فى مياه الطوفان تورية عن مياه

المعمودية ؛ وأن فناء الجميع ، باستثناء القلة الصالحة (نوح وأقاربه) كناية عن يوم الحساب . ومن المنظور البيوريتانى فإن لهذه القصة ميزة أنها تؤكد على أن المختارين ، أى أولئك الذين تم اختيارهم لإنقاذهم ، أقل كثيرا من المدانين . ومن وجهة نظر خضراء أكثر حداثة ، فإن القصة تؤكد على كيفية أن أفعال البشر السيئة ، أى ذنوبهم ، يمكن أن تهدد العالم الحى بأسره . لقد كان الطوفان أول كارثة بيئية يتم تسجيلها .

وبعد نجاة نوح وعائلته ، يصف الكتاب المقدس كيف دخل الرب حينئذ فى عهد معه ومع البشرية بأسرها من خلاله . وفى مقابل عدم تدمير العالم مرة ثانية ، طلب الرب وضع نهاية لإراقة الدماء البشرية والتخلى عن أكل الطعام الذى يحتوى على دماء الحيوان . ومن التفاصيل المسلية أن الكتاب المقدس - طبعة أورشليم الجديدة - يضع عنوانًا على هذا الإصحاح هو النظام العالمى الجديد . والواقع أنه فى التراث اليهودى تم توسيع العهد الذى عقده الرب مع نوح ليكون عهداً مع الجنس البشرى كله ، وهو ما صار إجابة يهودية مشتركة على الشكوى من أن الرب يدخوله فى ميثاق مع اليهود وحدهم ، إنما يظهر تفضيلاً لجماعة صغيرة ويتجاهل بقية البشر .

وبالتالى فإن الكتاب المقدس يحكى كيف أن حام ابن نوح جاءه وهو مستغرق فى النوم وعار من ثيابه ، وأخبر أخويه اللذين لم ينظرا إلى عريه ولكنهما غطيا أباهما بثوب . وعلى أساس هذه الحادثة التافهة وضع نوح اللعنة ، لا على حام وإنما على ابنه كنعان ! :

«فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه وأخبر أخويه خارجا . فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء وسترا عورة أبيهما . ووجهاهما إلى الوراء . فلم يبصرا عورة أبيهما . فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير فقال ملعون كنعان . عبد العبيد يكون لإخوته » - تكوين ٩ : ٢٢ - ٢٥ .

وفيما بعد أعطى كنعان اسمه للأرض الواقعة إلى الجنوب ؛ وربما تفسر حالته المتدنية لماذا لم يستمر إطلاق اسم قبيلته على الأرض ساريًا أبداً ، ومن ثم أمكن دفع الكنعانيين جانبا كلما وجدوا فى الطريق . والأرض التى تسمى أرض كنعان عرفت فيما بعد باسم الأرض الموعودة التى أعطاها الرب للعبرانيين .

وشريعة نوح حسبما يسمى التراث الرباني اليهودي الجانب الإنساني من الصفقة ليس معبراً عنها بشكل واضح في الكتاب المقدس، ولكن تم استخراجها من الدليل الوارد في الكتاب المقدس. وإذ تم جمعها على هذا النحو كونت «توراة الأميين» (لأن توراة اليهود هي الوصايا العشر). وبمقتضى هذه الوصايا السبع التي تمثل شريعة نوح يحرم على الأميين عبادة الأصنام، والكفر، والقتل، والزنا، وإتيان المحارم والسرقة وأكل اللحم وبه الدماء. وهم مأمورون أيضًا بوضع نظام للعدالة. ولكنها ليست موجودة بشكل واضح في الكتاب المقدس، وإنما تعتمد على سلطة الأحبار اليهود، فإن شرائع نوح لم تأخذ الاهتمام الذي تستحقه في العالم المسيحي. وربما يكون السبب في هذا أن المسيحيين لا يشعرون بقوة مشكلة ميثاق نوح حتى يحلوها. لماذا اختار الرب اليهود وحدهم؟ وربما يكون السبب أنه نتيجة للجدل المثار حول الاستبدال، والذي أشرنا إليه في الفصل السابق. يستحق ميثاق نوح أن يعود إليه الباحثون المسيحيون. وقصة نوح هي أيضا جزء من الإيمان الإسلامي.

والقصة النهائية قبل أن يحول سفر التكوين انتباهه إلى إبراهيم، هي عن برج بابل، الذي يظن الباحثون المحدثون أنه كان في مكان ما ببلاد ما بين النهرين. فقد رأى الرب برجا عظيما، ورأى أن الجنس البشري يتعاظم بشكل متزايد. ولكي يحول دون حدوث أي تعاون من هذا النوع في المستقبل، كسر وحدة اللغة التي كان الجنس البشري يستمتع بها حتى ذلك الحين. وكثيرا ما كان المبشرون يوظفون قصة برج بابل باعتبارها كناية عن شرور حياة المدن. ومرة أخرى كان الدرس هو أن الرب سوف يتدخل لعقاب البشر الذين يسلكون مسلكًا سيئًا. وكل من قصة حام وقصة برج بابل، توحي لأي شخص يأخذهما حرفيًا، أن الرب الذي يصوره العهد القديم كان من الممكن إغضابه بسهولة ولم يكن ممكنًا التنبؤ بأفعاله! أي نوع من الأب سريع الضيق الذي يحرص الأبناء على عدم إغضابه. والحقيقة أن هذا بالضبط هو نوع الانطباع الذي كان المبشرون البيوريتان يريدون إعطاءه.

أما إبراهيم، الذي يرد الكلام عنه غالبًا باعتباره الجد الروحي لليهود والمسيحيين والمسلمين، فقد بدأ حياته في آرام، رجلاً مسنًا من أبناء القبائل عاش في مدينة أور جنوب العراق. وقد تمكن علماء الآثار من إعادة بناء عناصر من الديانة والثقافة التي كانت للسكان الأصليين في الإقليم قرب زمن إبراهيم، وهي توضح درجة مدهشة

من الاتفاق مع رواية الكتاب المقدس. وقد غير هذا من الرأى السابق للعلماء بأن إبراهيم ومن عاصروه إنما كانوا فى الحقيقة أنماطًا أسطورية عتيقة، تم اختراعها لتجسيد وإحياء قصة ضبابية معتمدة عن ذكرى الأصول العبرانية.

ويقدم سفر التكوين إبراهيم بوصفه مؤسس ما كان فى الحقيقة حركة دينية جديدة. إذ كانت لها ربها الخاص، الذى عقد معه إبراهيم ميثاقًا. والإخلاص للميثاق أو العهد كان لابد له أن يُعتمد ويُصَدَّق عليه بطقس الختان، وفى المقابل وعد الرب إبراهيم بأنه سيجد وطنًا. وبأمر الرب قاد قبيلته للخروج من أور؛ وبعد قدر من التأخير، استقروا فى أرض كنعان. وقد منح الله كنعان لإبراهيم وذريته باستمرار، وهى هبة تجددت تحت قيادة موسى. وبعد نوح كان العهد مع إبراهيم هو العهد الثانى بين الله والإنسان، وهو أول عهد يعقد مع شعب واحد دون سواه.

وتدور حول إبراهيم عدة قصص مهمة فى الكتاب المقدس، وهى قصص صارت كتابات محببة فى الكتابات اليهودية اللاحقة، وعلى مرّ الزمان دخلت فى التنميط الكاثوليكى والبروتستانتى. وأشهرها ما يخص المناسبة التى تلقى فيها إبراهيم أمرًا من الرب بأن يستعد للتضحية بابنه المحبوب إسحاق (هو إسماعيل عند المسلمين) وهو مشهد بدا أنه كان ذا جاذبية خاصة لدى البروتستانت فى العصر الفيكتورى. وكان إبراهيم سيمضى فى تنفيذ الأمر لولا تدخل الرب، الذى أخبره بأن هذا كان مجرد اختبار لطاعته وإيمانه. وهو موضوع منتظم فى العهد القديم أن «أول الثمار» إنما هى للرب، وكان إسحاق هو «الثمرة الأولى» بمعنى من المعانى. وهكذا أعطاه إبراهيم للرب الذى أعاده إليه مرة أخرى. وهنا أيضا بعض أصداء رفض التضحية بالأطفال، التى يحتمل أنها كانت جزءًا من الممارسات الدينية للكنعانيين. لقد كان الرب يعلم إبراهيم بصورة درامية أن ذلك ما لم يكن يريده منه. وفى الكنيسة الباكرة كانت تضحية إبراهيم تتصل بتضحية المسيح.

وثمة قصة أخرى هى قصة تدمير سدوم، صارت أساسًا للإدانة المسيحية التقليدية للشذوذ الجنسى؛ ذلك أن لوط ابن أخى إبراهيم كان قد استوطن فى مدينة بهذا الاسم. وعندما جاء الرجلان - اللذان يوصفان بأنهما من الملائكة - للزيارة رحب بهما لوط فى منزله. ولكن رجال المدينة تجمهروا فى الخارج، وطالبوا بإحضار الزائرين إلى

الخارج للتعرف عليهما. وبدلا من ذلك قدم لهم لوط ابنتيه العذراوتين، لكى يفعلوا بهما ما يحلو لهم. ويبدو واضحًا أن الجمهرة كان فى ذهنهم عملية اغتصاب جماعية. ومن الواضح أن تقديم بنات المرء بديلاً لإنقاذ رجلين غريبين من مثل هذا المصير كان فى أخلاقيات ذلك الزمن يبدو محل ثناء كبير؛ لأنه حين شرع الرب فى تدمير المدينة جزاء خطاياها رتب لهرب لوط أولا. وكان هذا إكرامًا للصفقة التى عقدها الرب مع إبراهيم. وبينما كانوا يهربون صدر الأمر إليهم بألا ينظروا إلى الوراء؛ ولكن زوجة لوط نظرت وراءها فتحولت إلى عمود من الملح.

ومرة أخرى يبدو معنى العدالة عند الرب غامضًا قليلاً، بيد أن هناك قدرًا كبيرًا من الدروس الأخلاقية الأخرى التى يستخرجها المبشرون من هذه الحكاية الخارقة (ليس أقلها ما يحدث للزوجات العاصيات والاتصال الجنسى فيما بين الرجال، سواء رضوا أم لم يرضوا، وهو أكثر شرًا من اغتصاب النساء). وربط سدوم بالشذوذ الجنسى كان أقوى فى البروتستانتية، وبقدر أقل فى الكاثوليكية، وأقل من ذلك فى البحث اليهودى حيث يعتبر عدوان السدوميين الحقيقى على الأخلاق هو رفض احترام الغريب، ومن ثم فهى خطيئة ضد واجب الضيافة. والسدومية لاتوجد فى الكتابات اليهودية باعتبارها مرادفًا لممارسة الشذوذ الجنسى، كما هو الحال فى المسيحية. وفى أماكن أخرى من العهد القديم تستخدم سدوم مثالاً على البغى والإثم المتزايد. ولوط تذكرة أخرى بموضوع البقية الصالحة فى التنميط اليهودى. وفى العهد الجديد (لوقا ١٧ : ٢٩) يرد ذكر تدمير سدوم على أنه نذير بيوم الدينونة؛ وعلى أنه مثال للشر الذى لامثيل له (وهو ما كان يمثل إغراء للمبشرين البروتستانت لمساواته بروما).

وكان لإبراهيم ابن من جارية زوجته هاجر. أما إسحاق فكان ابنه من زوجته سارة. وعندما خشيت هاجر من أن مولد ابن شرعى ووريث شرعى يهدد ابنها صلت للرب تطلب المساعدة (سفر التكوين ٢١ : ١٨).

ولا يتابع العهد القديم هذا الأمر لأبعد من ذلك، ولكن بعد أكثر من ألفى سنة ضمن النبى محمد قصة إسماعيل فى روايته عن أصل الإسلام. ولم يكن الإسلام شيئا غير ديانة إبراهيم على بساطتها القديمة، وإبراهيم هو أبو إسماعيل وجد العرب، تمامًا مثل إسحاق الذى ينحدر اليهود من نسله. وأعلن أن ديانة إبراهيم

الحقيقية قد تشوشت باليهودية والمسيحية؛ وأنه هو محمد خاتم الأنبياء أرسله الله لإعادتها إلى نقائها. وفى الإسلام يقدم ميثاق إبراهيم مع الرب نسخة أخرى من نظرية الشعب المختار؛ إذ إن أصحاب الزعم الجديد فى استحقاق هذا اللقب هم «الأمة الإسلامية»(*). ومثل الدعاوى الأخرى، استبعدت هذه الدعوى كل الدعاوى الأخرى وأنكرتها. ولا يمكن أن يكون هناك سوى شعب مختار واحد، وكل جماعة أخرى تزعم لنفسها هذا اللقب كانت تؤخذ على أنها تهديد قاتل. ومثلما أخذ اليهود طقسهم فى الختان من إبراهيم، كعلامة علىَ العهد كذلك فعل المسلمون(**)، والكتاب المقدس يسجل ختان إسماعيل بشكل محدد (تكوين: ١٧ : ٢٣). كان يعقوب أصغر أبناء إسحاق، وحاز يعقوب على الاسم الإضافى إسرائيل. وفى حينه جاءت الزوجات والأبناء وأبناء الأبناء فى حياة يعقوب-إسرائيل لكى يؤسسوا عائلة من سبعين شخصًا. وكانت هذه نواة الشعب الإسرائيلى. وابن يعقوب يوسف تم بيعه فى سوق النخاسة على يد إخوته، ولكنه ارتقى إلى مركز عال فى البلاط المصرى، وفى النهاية ساعد عائلته على الاستقرار فى مصر هربًا من المجاعة، وقصة كيفية تعرفه على إخوته المعدمين ومسامحته لهم قطعة قوية من الأدب. وكان أبناء يعقوب-إسرائيل هم الأسباط الإثنا عشر من القبائل الإسرائيلية. ولأن مفهوم الرب القبلى كان عاديًا، استغرق الأمر بعض الوقت لكى تتسع الألوهية المحلية إلى مفهوم الرب العالمى الواحد، ليس فقط رب إسرائيل ولكن أيضا خالق العالم. وبحلول وقت الأسر المصرى. فقد تم الترحيب بعائلة يوسف فى بداية الأمر، ولكن فرعون قرر استعبادهم فيما بعد. كان تاريخ الخلاص جاهزا للعنصر الثالث لكى يوضع فى مكانه من القصة التى تكشفت. فقد

(*) الإسلام لا يعتبر المسلمين شعب الله المختار، وذلك لأنه دين للعالمين، أى لكل البشر، خلقهم الله من ذكر وأنثى وجعلهم شعوبا وقبائل ليتعارفوا وأن أفضلهم عند الله أتقاهم، فهم سواسية، وفى القرآن ﴿ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجزى به ولا يجد من دون الله وليا ولا نصيرا﴾، ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون﴾. من ناحية أخرى فإن الإيمان بالله ورسله وكتبه شرط أساسى من شروط الإيمان الإسلامى؛ وهو ما لا يستقيم مع منطق الشعب المختار واستبعاد من قبله. المترجم.

(**) لا يمثل الختان أى عهد عند المسلمين، فما هو إلا سنة. المترجم.

كان رب إسرائيل وخالق العالم على وشك أن يتجلى أيضا باعتباره واضع القانون الأخلاقى؛ أى السلطة وراء الوصايا العشر.

ففى البداية كان لابد من إنقاذ العبرانيين من المصريين. وكانت قصة الخروج من بين أهم القصص فى يهودية العهد القديم، والتى أشير إليها بشكل منتظم فى النصوص اللاحقة. وكان أهم احتفال يهودى فى السنة هو العبور، الذى كان يتم به تذكر تخليص العبرانيين بخروجهم من مصر، ويعاد تمثيله بشكل رمزى، بمعنى انتقالى ارتبط بكل تحول وبكل لغة. وكان النص مصدراً غنيًا للمادة التنميطية سواء فى اليهودية أو المسيحية. وقبل حركة الإصلاح الدينى، استخدم الخروج بشكل تنميطى للإشارة إلى المعمودية، والفصح، والعشاء الربانى. كما أن العبودية التى تم الهروب منها كانت عبودية للخطيئة. وهكذا فإن أبطال العهد القديم - إبراهيم نفسه وموسى وجدعون وشاءول وداود وهلم جرا - كانوا كلهم أنماطًا سبقت المسيح وبشرت به. فقد ناضلوا ضد أعداء إسرائيل الماديين، على حين ناضل هو ضد أعداء إسرائيل / إسرائيل الجديدة الروحيين الذين كانوا أشد خطورة تماما. وقبل حركة الإصلاح الدينى، لم يكن هناك زعيم مسيحى يرضى بأن يسمى نفسه «موسى آخر»؛ فإذا فعل فإن الكنيسة كانت تسرع إلى تذكيره بأن المسيح وحده هو الذى يحق له أن يحمل هذا الاسم.

وكانت مصر (وفرعون بالتالى)، فى التنميط البروتستانتى، هى المعادل لأى طغيان وجد منذ ذلك الحين فصاعدا، كما كان بنو إسرائيل هو الاسم الذى يطلق على أية مجموعة قاومت الطغيان وهربت منه. ومن ثم كان ممكنًا أن تكون مصر هى روما فى عيون البروتستانت فى القرن السادس عشر، أو هى إنجلترا بالنسبة للأمريكيين فى القرن الثامن عشر (وبذلك أمكن القول بأن جورج واشنطن هو موسى). لقد أسقط موضوع «الهروب من الخطيئة» الذى تنادى به الكاثوليكية؛ لأن المذهب البروتستانتى سواء فى صيغته اللوثرية أو الكالفينية، كان يرى أن الهروب من الخطيئة إنما يكون عن طريق الإيمان وحده ومن خلال التسليم لرحمة الرب. والهروب بمجهودات المرء الخاصة كان يوحى «بالأعمال الخيرة» فى المذهب الكاثوليكى التى تلقى أكبر قدر من الرفض لدى البروتستانت.

وهكذا يمكن إسباغ وصف موسى باعتباره نمطًا عتيقًا للمُحرِّر، على أى شخص يستحق هذا اللقب عن جدارة فى رأى البروتستانت. وقد تم وصف كل من أوليفر كرومويل

وشارل الثانى بموسى ، بيد أن مزاعم چورج واشنطن كانت أقوى (أو هكذا ظن معاصروه) . وكان واحد من كثيرين نسجوا هذه الرابطة هو الباحث العظيم فى جامعة يل ، تيموثى دوايت الذى ضمَّن ما جاء فى سفر التثنية (٣٤ : ١٠ - ١٢) فى خطابه بمناسبة موت واشنطن سنة ١٨٠٠م ، «ولم يقم بعد نبى فى إسرائيل مثل موسى الذى عرفه الرب وجها لوجه . فى جميع الآيات والعجائب التى أرسله الرب ليعملها فى أرض مصر بفرعون وبجميع عبيده وكل أرضه ، وفى كل اليد الشديدة وكل المخاوف العظيمة التى صنعها موسى أمام أعين جميع إسرائيل » وأضاف : «إن واشنطن مثل موسى الذى ولد لأبوين بسيطين ولكنهما جديران بالاحترام؛ ومثل موسى الذى تعلم فى البرية؛ ومثل موسى الذى كان مترددا فى الاستجابة لدعوة الرب بخدمة الناس» ، وهلم جرا . وكانت دوايت قد كرس بالفعل كتابه المسمى The Conquest of Canaan إلى واشنطن : وكانت تلك محاولة الربط بين النبوءة فى الكتاب المقدس وتقدم الشعب الأمريكى وهروبه من الطغيان البريطانى تحت زعامة موسى جديد .

ما حجم الحقيقة التاريخية فى قصة العهد القديم عن هروب بنى إسرائيل من عبوديتهم لفرعون؟ يحذف الكتاب المقدس أى ذكر عن عاصفة سياسية كبرى حدثت فى الحياة المصرية يمكن أن يشير هذا إليها . وتوفيق التواريخ بين التاريخ المصرى القديم والتاريخ كما يرويه الكتاب المقدس كانت باستمرار مسألة تخمين بدرجة كبيرة ؛ بسبب نقص الأدلة . بيد أن المراجع لم تذكر أن نفى العبرانيين فى مصر لم يحدث . وما يزال هناك الكثير يحتاج إلى شرح ، إذ يقرر الأستاذ جوزيف ميليتنز مودرز يچيوسكى ، أستاذ التاريخ القديم فى السوربون ، فى كتابه The Jews of Egypt : على النقيض من غياب الأدلة عن الحوادث السياسية ، فإن الكتاب المقدس يضع كثيراً من ملامح الحياة الاجتماعية المصرية فى ظل الدولة الجديدة ، فى لغة تصلح معياراً للتحقيق التاريخى والأثرى بدرجة معقولة .

وهو يجد نمطًا يمكن أن يكون شبيهًا بيوسف الذى ذكره الكتاب المقدس فى آبر - إل الأجنبى الآسيوى الذى ارتقى لدرجة وزير تحت حكم أمينوفيس الثالث من الأسرة الثامنة عشرة . وفى الأسرة التاسعة عشرة تحت حكم الملك مينبتاح ، ارتقى آسيوى اسمه بن - آزن إلى مرتبة عليا بين حاملى الأكواب الملكية . ولا يمكن افتراض أنهما كانا يوسف وموسى ، ولكنهما يوضحان أن ترقية يوسف وموسى

لمنصب عال لم يكن أمراً مستحيلاً . وعلى نفس المنوال ، فإن قصة الطفل موسى ، ابن أحد العبيد ، الذى تم إنقاذه من سلة طافية على سطح النهر ، وُضع فيها ليهرب من القتل المعتاد للأطفال الذكور ، يمكن أن يتوافق بسهولة مع حكايات مصرية أخرى ؛ إذ إن الشخصيات العليا كانوا أحيانًا يتبنون بالفعل أطفال العبيد الشاردين .

كانت هناك جماعات عديدة خاضعة من غير المصريين فى البلاد ، ولم يكن العبرانيون هم الأكثر عدداً بينهم بالضرورة . وقد عرفوا أحيانًا باسم " الشوسو " وعملوا فى الأعمال اليدوية كما عملوا جنوداً . وكلمة "عبيد" تبالغ فى تبسيط وضعهم . وحسبما يرى مودرزيچيوسكى ، فهم :

« لم يكونوا جماعة عريقة أو أمة وحسب ، وإنما كانوا فئة اجتماعية لها أسلوب حياة مشترك . كان أسلاف بنى إسرائيل جزءا من جماعة هامشية أكبر ، غامضة لكنها كاملة ، محل شك ولكنها مفيدة أحيانًا . . . وكان لابد وأن يجىء اليوم الذى تقوم حفنة قليلة من هؤلاء المهاجرين ، الذين لم يعد لديهم استعداد للحياة الكادحة فى بلد معاد ، بمغادرة مصر تحت قيادة رجل اسمه موسى . وبالنسبة للحكومة الفرعونية كانت تلك حادثة صغرى : رحيل مجموعة واحدة من بين عدة مجموعات من الشوسو . أما بالنسبة لبنى إسرائيل ، فقد كانت على العكس ، لحظة تاريخية ذات أهمية كبرى » .

وربما لا يكون موسى قد كتب أسفار التوراة الخمسة كلها ولكنه كان بالضرورة مصدر مثل هذه القصص؛ إذ إن نضاله مع الفرعون حتى يسمح للعبرانيين بالرحيل تحول إلى قدرته بالتهديد بعدة محاولات (أوبئة) على عائلة فرعون ورعاياه . وأهمية هذه ليست فيما كانت ماهيتها بالضبط ، على الرغم من أن البثور والضفادع والهوام والجراد موصوفة فى سفر الخروج بشكل يجعل منها مخزنًا عامراً بالكنايات للمبشرين اللاحقين . ولكن الحقيقة أنه لم يكن بوسع موسى أن يشن حملة التهديدات المرعبة التى شنها دون مساندة واتفاق مباشر مع الرب . ولا يواجه الأثريون صعوبات كبيرة فى العثور على تفسيرات طبيعية ، ولهذا فليست هناك حاجة للقول بأن هذه الأوبئة كانت إعجازية . بيد أن توقيتها يوضح أن الرب كان يوجه عنايته على مدى الزمان لصالح بنى إسرائيل . هذا فيما يتعلق بالدور المركزى الذى يلعبه الهروب من مصر فى تاريخ الخلاص : إذ إنه فى الحقيقة مفصل الحبكة

كلها . فليست ثمة موضع آخر يتدخل فيه الرب بشكل أكثر مباشرة لإنقاذ ربه من الدمار الوشيك أكثر مما فعله حينما توقفوا عند البحر الأحمر ، والفرسان المصريون يجدّون في أثرهم ، ثم تنشق المياه فجأة لكى يمروا ، وتُطبق مرة أخرى على مطارديهم حينما يحاولون العبور . حسبما يقول مودرزيچيوسكى :

« الحقيقة أنه بالنسبة لجيوش الفرعون ، كانت هذه القصة مناوشات بسيطة مع عصبة من عمال السخرة الذين قرروا الهرب ، حادثة ليست بذات أهمية تذكر . أما بالنسبة للعبرانيين فعلى العكس ، كانت حادثة عظمى تجلت فيها يدُ الرب ، بحيث سمحت لهم بالهرب من العبودية وبأن يصيروا أمة . كان هذا هو الميلاد الحق لإسرائيل ؛ إذ إنه ذاكره محفورة إلى الأبد فى عقيدتها» .

ومن ناحية التنميط ، كان موسى أكثر جاذبية لصانعى الأساطير فى أمريكا منه فى انجلترا ، وكان اسمه يستخدم فى المقارنات مع أشخاص مختلفين مثل چون وينثروب وچورچ واشنطن ومارتن لوثر كنج . وتم رفع الأخير إلى مرتبة نبى فى الكنيسة الإبيسكوبية فى الولايات المتحدة . وله عيد خاص فى تقويم الكنيسة فى يوم ٥ أبريل .

أما الربط بين دور موسى وچون وينثروب فكانت فكرته هو . ففى خطبته الشهيرة التى تحمل عنوان «A Modell of Christian Charity» والتى كتبها على ظهر السفينة آرابلا وهو يقترب من الشواطئ الأمريكية سنة ١٦٣٠م ، كانت الخاتمة :

«إننى سوف أنهى هذه الخطبة بتلك الوصية التى قالها موسى ، ذلك الخادم المخلص للرب ، فى وداعه الأخير لإسرائيل . فى سفر التثنية ٣٠ : «انظر قد جعلت قدامك الحياة والخير والموت والشر . بما أنى أوصيتك اليوم أن تحب الرب إلهك وتسلك فى طرقه وتحفظ وصاياه وفرائضه وأحكامه لكى تحيا وتنمو ويباركك الرب إلهك فى الأرض التى أنت داخل إليها لكى تمتلكها» (سفر التثنية ٣٠ : ١٥ ـ ١٦) .

وثمة حادث له أهمية أكبر حدث خلال المسيرة الطويلة لبنى إسرائيل عبر الصحراء صوب الأرض الموعودة . وهى أرض كنعان التى كانوا قد تركوها منذ مئات السنين قبل أن تسوقهم المجاعة إلى الجنوب . وفى مواجهة تتسم بالسرية العظيمة والسمو ، رأى موسى الرب وجها لوجه عند جبل سيناء وتلقى منه ألواح الشريعة التى نقشت عليها الوصايا العشر . كانت هذه هى المبادئ الأخلاقية والدينية

التى كان على شعب الرب أن يرتبطوا بها منذ ذلك الحين فصاعدا. وبهذا كان الرب يجدد ميثاقه معهم، ويحدد الواجبات التى ترتبط بالميثاق. ومنذ ذلك الوقت، كان واجب شعب الرب تجاه الرب وواجب شعب الرب تجاه كل منهم والآخر، جزءاً من نظام متحد من الإيمان والممارسة. والتوحيد الأخلاقى يرجع فى تاريخه إلى تلك اللحظة. ولم يكن ممكنا أن يكون واضحا لمن جاءوا قبل ذلك، أن الطريق الصحيح لعبادة الرب له علاقة بالسلوك الأخلاقى.

وربما يثور اعتراض بأن الميثاق بين الإنسانية والرب، والذى تم على يد نوح بعد الطوفان، بوصاياه السبع التى تماثل بعض الوصايا العشر، يوضح أن ثمة ميلاداً سابقًا للتوحيد الأخلاقى. ولكن إذا كان موسى هو الذى كتب قصة نوح حسب أكثر الحسابات تحفظًا، فلابد أنه فعل ذلك بعد تلقى الألواح على جبل سيناء. وباختصار فإن التوحيد الأخلاقى كان سراً احتفظ به موسى لنفسه. وتنطبق نفس النقطة على القصة الواردة فى سفر التكوين عن أن إبراهيم قد تم اختياره أبًا لشعب جديد، وأنه وعد بأرض كنعان لهم، وهو ما يمثل بشيراً بنفس الوعد الذى أعطى لموسى. وربما يفترض أن كاتب سفر التكوين أو محرره (إذا لم يكن هو موسى) لم يكن يعمل بشكل منفصل عن كاتب سفر الخروج، ومن ثم لايمكن اعتبار القصتين معضدتين لكل منهما الأخرى بشكل مستقل. وإنما يمكن اعتبار كاتب سفر التكوين يقدم مادة تاريخية سابقة، لكى يعزز هبة الأرض الموعودة التى سجلها سفر الخروج، التى كان يعرفها جيدا فى زمن الكتابة.

والوصايا العشر لاسيما تلك التى تمنع شهادة الزور والقتل والسرقة والزنا، تحتل مكان القلب فى الحضارة الغربية. والوصية التى تأمر بعدم القسم باسم الرب عبثا استمرت على مدى عدة أجيال تحدد مفهوم اللغة السيئة، كما أن الوصية بالراحة فى اليوم السابع أعطت للحضارة الغربية نموذجها الأساسى فى الأسبوع الذى يتكون من سبعة أيام واليوم السابع تغطيه قواعد مختلفة. بعضها أشد صرامة وبعضها أكثر استرخاء. عن الأيام الأخرى.

وعلى الرغم من أن العقل العلمانى لا يفهم الوصية بعدم عمل الأصنام لآلهة مزيفة، بمثل هذه السهولة، فإن لها صدى قويًا فى الجدل الأخلاقى المعاصر، بل وحتى الوصية بتكريم الأب والأم مثل الوصية بتحاشى الزنا، ما تزال تعتبر مبدأ ساريا وفعالا.

بيد أن هناك ملمحًا مثيرًا يبرز من أصول هذه الوصايا ليس واضحا بهذا القدر. فحينما قدمت الوصايا للمرة الأولى اعتبرت أنها تنطبق فقط على شعب الرب الذى كان هو بنى إسرائيل، تماما مثلما كان الإله الواحد هو رب الإسرائيليين. ويصبح هذا واضحا إذا ما نظرنا إلى الوصايا العشر فى سياق الكتاب المقدس، باعتبارها جزءًا، وإن يكن هو الجزء المركزى، من نظام أكثر تعقيدًا من القوانين والعادات الشعائرية للعبادة الصحيحة للرب الحقيقى. وبعض الشرائع سوف تصدم أى قارئ حديث باعتبارها أمرا غريبا؛ إذ إن سفر اللاويين (٢٠ : ٢٤ ـ ٢٧) مثلا يقول:

«وقلت لكم ترثون أنتم أرضهم وأنا أعطيكم إياها لترثوها أرضا تفيض لبنا وعسلاً. أنا الرب إلهكم الذى ميزكم من الشعوب. فتميزون بين البهائم الطاهرة والنجسة وبين الطيور النجسة والطاهرة فلا تدنسوا أنفسكم بالبهائم والطيور ولا بكل ما يدب على الأرض مما ميزته لكم ليكون نجسا. وتكونون لى قديسين لأنى قدوس أنا الرب. وقد ميزتكم من الشعوب لتكونوا لى.

وإذا كان فى رجل أو امرأة جان أو تابعة فإنه يقتل. بالحجارة يرجمونه. دمه عليه.

لا تقتل مثلا كان معناها الأصلى لا تقتل الإسرائيليين بنى جلدتك، أى أنها لا تنطبق خارج حدود الشعب المختار، وهو ما يتضح من عدة نصوص مثل سفر اللاويين (٢٦ : ٣ ـ ٨):

«إذا سلكتم فى فرائض وحفظتم وصاياى وعملتم بها. أعطى مطركم فى حينه وتعطى الأرض غلتها وتعطى أشجار الحقل أثمارها. ويلحق دراسكم بالقطاف ويلحق القطاف بالزرع فتأكلون خبزكم للشبع وتسكنون فى أرضكم آمنين. وأجعل سلاما فى الأرض فتنامون وليس من يزعجكم. وأبيد الوحوش الرديئة من الأرض ولا يعبر سيف فى أرضكم وتطردون أعداءكم فيسقطون أمامكم بالسيف يطرد خمسة منكم مئة ومئة منكم يطردون ربوة ويسقط أعداؤكم أمامكم بالسيف».

هذا عالم أخلاقى أصعب كثيرا على الفهم مما قد يبدو للوهلة الأولى. وأحد تفسيرات الشريعة الموسوية فى مجملها، هى رؤيتها باعتبارها مصممة لتحقيق الانسجام بين الإسرائيليين داخليا، وتحقيق النصر على أعدائهم بأى ثمن، والواقع أن الحوادث التالية يبدو أنها تستبعد أية قراءة أكثر كرمًا، ومن ناحية أخرى فإن الرب لا يبدى عدم اكتراثه الواضح بتعاليمه الأخلاقية فحسب، وإنما هو يقود الإسرائيليين لكى

يفعلوا هذا. ويبدو أن المبدأ هو أن شعب الرب يجب أن يعامل كل منهم الآخر بطريقة صحيحة وعادلة، ولكنهم يمكن أن يعاملوا بقية البشرية بالطريقة التى تلائمهم.

وسفر اللاويين لا يدور فقط حول الشعائر. ففى سفر اللاويين يظهر لأول مرة ما يسمى شريعة الحرب «بالعدل تحكم لقريبك. لاتسع فى الوشاية بين شعبك. لاتقف على دم قريبك. لاتبغض أخاك فى قلبك لا تنتقم ولا تحقد على أبناء شعبك، بل تحب قريبك كنفسك» (لاويين ١٩ : ١٥ـ١٨). على هذا النص ألقى يسوع موعظة عن السامرى الطيب، متحديا الرأى الراسخ حول من يكون الجار أو القريب، ومن لا يكون، بأن مد نطاق هذه الفئة لكى تشهد السامرة، وهى فرقة يهودية ينظر إليها اليهود الربانيون وهم الأغلبية، على أنها طائفة غير نقية، وعلى الرغم من أنه كان يزيح الحدود فإنه حتى لم يوضح أن القريب الذى أشار إليه سفر اللاويين، الإصحاح ١٩ يمكن أن يكون أى إنسان يعيش فى أى مكان على كوكب الأرض.

هذا تفسير حديث حقًا؛ إذ إنه حتى فى العصور الوسطى للمسيحية لم تكن صفة جار ممتدة فى نطاقها بحيث تشمل اليهود والمسلمين الذين كان المسيحيون يشعرون أنهم أحرار فى قتلهم بالآلاف زمن الحروب الصليبية، ولم يكن المنشقون على الكنيسة الكاثوليكية جيرانا، على نحو ما اكتشف الألبيجنسيون(*) . ومثلما كان الحال زمن موسى، كان لابد للجار أن يكون ضمن من يؤمنون بالدين أو العقيدة، أى أن يكون عضوا آخر من شعب الرب. وبعد حركة الإصلاح الدينى ولاسيما فى المستعمرات التى استوطن بها البيوريتان، لم ينطبق مفهوم الجار بشكل عام على السكان الأصليين «المتوحشين»، كما أنه لم ينطبق بعد ذلك بوقت قليل على العبيد فى الجنوب، وإحدى التهم الموجهة إلى حكم چورج الثالث والواردة فى إعلان الاستقلال لا تشير فقط إلى الهنود الحمر بمصطلحات تتجاوز المقبول، وإنما تذكر كذبًا الزعم بأن البريطانيين قد حاولوا توجيه العبيد للتمرد ضد سادتهم. والأمريكيون الأصليون الذين يطلق عليهم اسم الهنود ، سرعان ما اكتشفوا مثل الكنعانيين قوة النص الوارد فى سفر اللاويين: «يطرد خمسة منكم مئة، ومئة منكم

(*) الألبيجنسيون طائفة مسيحية ظهرت فى جنوب فرنسا فى العصور الوسطى (القرن الثانى عشر)، وقد عرفوا أيضا باسم «الأطهار» أو «الكاثاريين»، وكانوا ينكرون بعض مذاهب الكنيسة الكاثوليكية. وقد شنت عليهم البابوية بالتعاون مع الملكية الفرنسية الإقطاعية حربا خربت جنوب فرنسا المزدهر والأرقى من الشمال، واستمرت الحرب أكثر من ربع قرن. ـ المترجم.

يطرد ربوة ويسقط أعداؤكم أمامكم بالسيف». وحتى الكنديون الفرنسيون، اللذين غزاهم جيش ثورى أمريكى ذاقوا لفترة قصيرة، طعم أن يكونوا كنعانيين سنة ١٧٧٦م.

والحقيقة أن المبدأ العام لايزال ساريا؛ ذلك أن تلك الأمم التى شكلت هوياتها سواء فى الحاضر أو فى الماضى تحت لافتة «الشعب المختار» ما تزال تعمل على تحديد «الجار» بحيث يكون معناه أعضاء فى نفس الوطن. أما واجب التضامن العالمى الكونى - أى مفهوم نظام لحقوق الإنسان ينطبق بالتساوى على الجميع بغض النظر عن الجماعة الوطنية أو العرقية التى يتمون إليها - فهو فكرة حديثة للغاية. وكل ما يرخص به العهد القديم، فى المعنى الواضح لنصه على الأقل، مجموعة من الحقوق لأولئك الذين هم فعلاً داخل الشعب المختار.

ومع هذا فإن الرسالة الواضحة لأفضل الزعماء اليهود كانت متسقة على مر العصور: إذ إن العبرة بكون جماعة «الشعب للمختار» ليست تسيدها فوق الآخرين ولكن أن تكون «نورا للأمم». فالرب لم يختر ولا يختار شعبًا واحدًا من بين بقية الشعوب؛ لأنه يسره أن يكون له من يؤثرهم؛ إذ إن على الشعب المختار واجبًا باستخدام مكانتهم ووضعهم لصالح البشرية جمعاء، وعليهم أن يتوصلوا بالقدوة لتعليم درس الأخلاق ودرس عبادة إله، واحد حقيقى. وهما الدرسان اللذان أحضرهما موسى من جبل سيناء. ولكن إذا اختفت الميزة التى لصالح البشرية، وكل ما يمكن أن يراه أولئك الذين ينظرون إلى الشعب المختار هو الفساد، والظلم، وإساءة استخدام القوة والثروة، والتخلى بشكل عام عن الأسمى فى سبيل المباهج المادية قصيرة المدى، فإن الرب حينئذ سوف يسحب حمايته، سيغرق الشعب المختار فى زمن من الويل والمصائب، وقبل أن يعترى الرب اليأس من الشعب المختار، يحاول أن يعيدهم إلى الإحساس الحقيقى بالنداء الدينى الداخلى. وسوف يرسل الأنبياء لتحذيرهم، والمصائب لعقابهم والثواب لراحتهم، وإذا ما كانوا مؤمنين فسوف يرسل إليهم الانتصارات على أعدائهم والسلام والانسجام الداخلى والخارجى، وزمنا من الازدهار والرفاهية.

وسوف تكون أحكامه الحاسمة عن كيف عامل الشعب المختار الضعفاء ومن لا حيلة لهم - فى العهد القديم (سفر الخروج ٢٢ : ٢٢) «لا تسىء إلى أرملة أو يتيم»

والعدالة فى أعين البشر تتصل صلة وثيقة بالتبرير فى عينى الرب. وهذا هو المعنى الحقيقى للميثاق، فى أعين أولئك القادة اليهود الذين هم أكثر انغماسًا فى حكمة دينهم. فهم يعرفون أحسن من معظم الناس؛ لأنهم يعرفون كتابهم المقدس أفضل من معظم الآخرين، إن مجرد التمتع بامتيازات الاختيار قد يجلب غضب الرب.

قال الرباى الرئيسى لليهود فى بريطانيا العظمى، الدكتور جوناثان ساكس، فى مقالة بصحيفة الجارديان كتبها فى ضوء الهجمات الإرهابية على مركز التجارة العالمى بنيويورك:

«لقد صار الدين قوة عظمى فى تشكيل حوادث العالم. وإذا لم يصبح الدين جزءا من الحل، فلا شك فى أنه سيكون جزءا من المشكلة.

إن القوى الخلاقة والقوى المدمرة فى الديانات الكبرى غالبا ما تعملان سويا؛ إذ إن الدين يربط الناس بعضهم كجماعات؛ وهذه هى قوتهم فى عصر فيه البنايات الأخرى للمعنى والعلاقات مشوشة ومقهورة. بيد أن نفس الأسوار التى نبنيها حول أنفسنا للحماية المتبادلة تفصلنا عن أولئك الذين يقفون فى الخارج؛ إذ إن كل «نحن» تخلق «هم». وذلك هو السبب فى أن الديانات، على الرغم من أنها تجلب السلام داخل حدودها يمكن أن تكون باعثًا على الحرب عبر هذه الحدود.

لقد مرت البشرية بهذا من قبل؛ ذلك أن صفحات التاريخ ملطخة بالدم الذى أريق فى الحملات الصليبية، والجهاد، ومحاكم التفتيش، والمذابح والفتن، والحروب الدينية التى مزقت وجه أوروبا وشوهته فى القرنين السادس عشر والسابع عشر. وفى الماضى كان معظم الناس محاطين بآخرين يشاركونهم التاريخ والتقاليد وأحد المذاهب الدينية. أما اليوم فإن حياتنا تضطرم بصراعات بعيدة عنا وثقافات تختلف عن ثقافتنا تمامًا. ولم يحدث أبدا من قبل أن واجهت الديانات تحديا مصيريا بالسماح بفضاء للاختلاف مثلما هو حادث الآن. الآخر، الكافر الذى لم يؤمن.

هل يمكن أن نرى صورة الرب فى فرد ليس على صورتنا؟ هل يمكن أن نسمع صوته فى لهجات غير لهجتنا؟ هل يمكن أن نتعلم أن نحب الغريب؟ لقد أعطانا الرب ديانات كثيرة، ولكن واحدة فقط يجب أن نعيش فى رحابها سويا، بيد أنها تصغر كلما مضى الزمن».

(٦)
جرائم الحرب والعبودية

إذا كان تاريخ الخلاص هو قصة الشعب المختار وهو يتحرك ببطء، وفي شرود ولكن بإصرار صوب هدف أسمى، فإن التاريخ الحقيقي الذى يصاحبه - أى التاريخ حسبما نفهم المصطلح عادة - يمكن أن يبدو دمويًا. فالإصحاح ٣١ من سفر العدد، مثلا يسجل كيف أن بنى إسرائيل تحت زعامة موسى هزموا ثم دمروا إحدى القبائل الوثنية وهم المديانيين، الذين كانوا قد أفسدوا بعض الإسرائيليين بالممارسات الوثنية - يوحى الدليل بأن الديانة الكنعانية كانت تركز على آلهة الخصوبة والجنس الطقوسى. وقتلوا كل الرجال واستولوا على جميع ممتلكاتهم، وكانت بعضها قربانًا لشكر الرب. ثم أمر موسى بقتل كل الأطفال الذكور وكل النسوة المتزوجات(*) أيضًا. ومن بين الأسلاب التى وزعت على المتصرين كانت هناك ٣٢٠٠٠عذراء. ولكن لم يكن ممكنا الاستمتاع بهن حتى يتم تنفيذ طقس النظافة بعد القتل: أما كيفية عمل هذا فقد تم شرحه بعناية.

وقد اقترح الباحثون المحدثون أن هذه النقطه فى قصة ليس لها أساس من الحقيقه - إنها وسيله تعليمية، توضيح الممارسات الطقسية. وهدفها أن تعلّم بنى إسرائيل النفور من عبادات الخصوبة لدى القبائل المحلية. ومع هذا فإن درجة الوحشية المقيتة والتعطش للدماء التى أوضحتها القصة صادمة للمشاعر؛ كما أن هذا ليس نصًا معزولاً. هكذا:

« متى أتى بك الرب إلهك إلى الأرض التى أنت داخل إليها لتمتلكها وطرد شعوبًا كثيرة من أمامك الحثيين و الجرجاشيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين

(*) وقال لهم موسى... فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال وكل امرأة عرفت رجلاً... وتغسلون ثيابكم فى اليوم السابع فتكونون طاهرين. سفر العدد، إصحاح ٣١ : ١٧ - ٢٤..

والحورين واليوسيين سبع شعوب أكثر وأعظم منك . ودفعهم الرب إلهك أمامك فإنك تحرمهم. لا تقطع لهم عهداً ولا تشفق عليهم» [سفر التثنية ٧: ١-٢].

« وأما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب إلهك نصيبًا فلا تستبق منها نسمة ما . بل تحرمها تحريمًا. الحثيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحوريين واليوسيين كما أمرك الرب إلهك لكى لا يعلموكم أن تعملوا حسب جميع أرجاسهم التى عملوا لآلهتهم فتخطئوا إلى الرب إلهكم» (سفر التثنية ٢٠: ١٦-١٨).

والتعليمات الأخيرة توضح أن التدمير الكلى لهذه القبائل للمجاورة تم الأمر به وإلا فإن دياناتها ستكون إغراء ماثلا بالكفر، كما حدث بالفعل. ذلك أن الآلهة الوثنية كانت باستمرار مصدر جاذبية لبنى إسرائيل الذين كان يتم باستمرار إغوائهم بعيدا عن عبادة الرب الواحد الحقيقى.

كانت هناك مصادقة كافية من الكتاب المقدس على المذبحة والإبادة والاستعباد وما يسمى الآن التطهير العرقى، التى ارتكبت كلها باسم الرب وغالبا بأمر مباشر منه.

وسفر التثنية (٣٢: ٤٩-٥٠) و (٣٤: ١-٥) يسجل اللحظة المحددة التى نظر فيها موسى، قبل موته مباشرة من فوق جبل عباريم على الأرض التى وعد بها الرب بنى إسرائيل:

«اصعد إلى جبل عباريم هذا جبل نبو الذى فى أرض موآب الذى قبالة أريحا وانظر أرض كنعان التى أنا أعطيها لبنى إسرائيل ملكا ومُت فى الجبل الذى تصعد إليه وانضم إلى قومك كما مات هارون أخوك فى جبل وضم إلى قومه» (تثنية ٣٢: ٤٩-٥٠).

«وصعد موسى من عربات موآب إلى جبل نبو إلى رأس الفسحة الذى قبالة أريحا فأراه الرب جميع الأرض من جلعاد إلى دان. وجميع نفتالى وأرض أمزايم ومنسى وجميع أرض يهوذا إلى البحر الغربى. والجنوب والدائرة بقعة أريحا مدينة النخل إلى صوغر. وقال الرب هذه هى الأرض التى أقسمت لإبراهيم وإسحاق ويعقوب قائلا لنسلك أعطيها. قد أريتك إياها بعينيك ولكنك إلى هناك لا تعبر. فمات هناك موسى عبد الرب فى أرض موآب حسب قول الرب» (تثنية ٣٤ : ١-٥).

ونقل موسى قيادة الجيش اليهودى المتوحش إلى يشوع، الذى كانت مهمته

الأولى أن يختن كل الذكور الذين لم يختتنوا من قبل. من الواضح أنهم تجاهلوا الختان. أما مهمته الثانية فكانت غزو كنعان بالقوة. ويسجل سفر يشوع مصير مدينة أريحا (يشوع ٦ : ٢١) بعد سقوطها بالاستراتيجية الغريبة بالسير حول الأسوار في دورات متتابعة مع نفخ الأبواق ويصحبهم تابوت العهد. «وحرموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة وطفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف . . . وأحرقوا المدينة بالنار»

ولاشك في أن هذه كانت الميزات العادية للنصر في العالم القديم؛ ذلك أن المصريين والإغريق والرومان لم يكونوا يتصرفون بشكل مختلف، ولكن لابد أنه كان سيبدو غير واضح بالمرة، بالنسبة لمن عانوا من مثل هذه الوحشية التي صادق عليها الرب، ما هي بالضبط الرسالة التي اختار الرب شعب الرب لكي يوصلوها - سوى رسالة بدائية مؤداها أن «ربنا أفضل من ربكم».

وإذا ما كان لتفسير الكتاب المقدس أن يهتدي بالسلطات الدينية اليهودية أو المسيحية بدلا من أن يترك لكل فرد، حسبما كان الحال حتى حركة الإصلاح الديني فإن الوحشية التي غالبًا ما يرد وصفها في العهد القديم يمكن تفسيرها إلى حد ما وهكذا فإن الحكايات التي تكشف عن الأحوال العسكرية والسياسية لقبائل بني إسرائيل، توضح أيضا أن رحلتهم الروحية تجاه فهم أفضل لما يريده الرب منهم. ففي البداية يظهر الرب في أفضل الأحوال وكأنه لايبالي بمعاناة أعداء بني إسرائيل (حتى نساؤهم وأطفالهم) وفي أسوأ الأحوال يسوق لهم الأسباب ويتلذذ بهذه المعاناة، بل ويتوقع أن يُشكر على فعل هذا. وبالتدريج تدخل القصة نغمة أكثر نعومة؛ ذلك أن سيف الغضب الحق قد ثُلم وتعلم العبرانيون أن ربهم هو رب العطف والرحمة الذي يفضل السلام على الحرب. ففي سفر إشعيا (٢ : ٤):

«فيقضي بين الأمم وينصف لشعوب كثيرين فيطبعون سيوفهم سككا ورماحهم مناجل. لا ترفع أمة على أمة سيفا ولا يتعلمون الحرب فيما بعد».

وبينما تعمق فهمهم للرب، تعمق فهمهم للإنسانية أيضا؛ إذ إن النصوص بدأت تهتم بالحالات العاطفية - السعادة والحزن والإحباط والفرح والشوق، بل وحتى الحب الرومانسي - مثلما تهتم بالأمور السياسية والعسكرية. وكان إله الحرب يبرز بالتدريج في الضوء بوصفه إلهًا للعدالة والحب.

ولكن حتى القرن التاسع عشر على الأقل - بل ولا حتى فى ذلك الحين فى بعض الحالات - كانت المسيحية البروتستانتية تتجه إلى التعامل مع الكتاب المقدس بوصفه كتابا للتعاليم الدينية له قيمة متسقة، وكل جزء له قيمة مساوية لقيمة كل جزء آخر دونما مفهوم للتطور، وحتى إذا كانت هناك نظرية للتطور تعتبر مفضلة لدى الباحثين المتخصصين فى الكتاب المقدس، فإن مبدأ أن لكل بروتستانتى الحق فى تفسير الكتاب المقدس بطريقته الخاصة كان مبدأ غالبًا، وكان هذا يصدق بصفة خاصة حين يتم التعامل مع تاريخ الخلاص على أنه قرين للتاريخ الحقيقى، وباعتباره وصفا دقيقا لما حدث بالفعل، وكانت أية قصة يرويها الكتاب المقدس عن تدخل الرب ليست سجلا لما كان الناس فى ذلك الزمان يؤمنون به، وإنما كانت مجرد حكاية عما يحتمل أن يكون الناس قد أساءوا فهمه، ونتيجة لهذا فإن السلوك الهمجى الذى يظهر بشكل أساسى فى بداية الفترة التى أعقبت الخروج يمكن أن يعطى وزنا باعتباره مثالا يتبع من العبرانيين الأكثر سلما وتحضرا فيما بعد. ويمكن وضع نهب ومذبحة أريحا مثلا باعتبارها موافقة إلهية على النهب والمذبحة التى ارتكبها كرومويل فى دروغيدا وويكسفورد سنة ١٦٤٩م أثناء حملته الإيرلندية. وكذلك لم يكن المثال الوارد فى الكتاب المقدس يعتبر غير مفيد، عند مواجهة المستوطنين البيض للناس الأصليين فى أمريكا والذين يطلقون عليهم اسم الهنود. لقد كانوا تماما مثل الكنعانيين يقفون فى طريق «الشعب المختار» ويمتلكون أرضهم الموعودة.

والحقيقة أن كرومويل يتشبه بجدعون أكثر مما يتشابه مع يشوع، وجدعون هو الذى يدخل القصة بعد أن رسخ الاستيطان فى أرض كنعان تماما. وبعد يشوع جاءت فترة من حكم القضاة الذى جمعوا مثلما فعل موسى، بين الزعامة الروحية والزعامة السياسية. وكان المديانيون العدو القديم الذى قضى عليهم موسى ما يزالون نشطين فى أرض كنعان، وبلغوا درجة من القوة لدرجة أنهم أخضعوا الإسرائيليين وأبقوهم فى حال من الخوف على مدى سبع سنوات. وكان جدعون فلاحًا يخفى قمحه بعد درسه حتى لا يأخذه المديانيون، ثم جاءه ملاك وأمره أن يطيح بالطغاة، وكان المديانيون ما يزالون يعبدون إلههم بعل، وكانوا قد أغروا عددا من الإسرائيليين، بما فيهم أبو جدعون يوآش ليدخلوا فى دياناتهم الوثنية.

وكان يوآش قد بنى مذبحا كبيرا (أو برجا) ليكون صنما لعبادة الإله بعل، وتلقى جدعون أمرا بأن يهدمه. وعندما صاحت الجماهير مطالبة بإعدامه عقابا له حماه أبوه الذى توسل من أجله وتكلم ضد بعل. وبعد اتصالات أخرى مع الملائكة الذين قاموا بعدة معجزات ليبرهنوا على صدق جدعون وأبيه، جمع جدعون قوة لمحاربة المديانيين. بيد أن الرجال البالغ عددهم ٣٢٠٠٠ رجل تحت خدمته حكم الرب بأنهم أكثر من اللازم وصرفوا جميعا فيما عدا ٣٠٠ حتى يمكن للرب أن يبرهن قوته. وبمساعدة إلهية ـ تلقى الرجال أمرا باقتحام معسكر العدو وهم يحملون المشاعل المضيئة، وينفخون في الأبواق ويصيحون «سيف للرب ولجدعون» وجدعون بحيث تسببوا فى فوضى كبيرة ـ هُزم المديانيون، وتم أسر ملكيهما وذبحهما، وسرعان ما جرت المذابح المعتادة.

ولأن أهل مدينة سكوت رفضوا أن يقدموا الطعام والشراب لجيش جدعون، عاد إليهم، ورجع جدعون بن يوآش من الحرب عند عقبة حارس، وأمسك غلاما من أهل سكوت وسأله، فكتب له رؤساء سكوت وشيوخها سبعة وسبعين رجلا، ودخل إلى أهل سكوت وقال هو ذا زبح وصلمناع اللذان عير تمونى بهما قائلين هل أيدى زبح وصلمناع بيدك الآن حتى نعطى رجالك المعيين خبزا ـ وأخذ شيوخ المدينة وأشواك البرية والنوارج وعلم بها أهل سكوت. وهدم برج فنوئيل وقتل رجال المدينة (سفر القضاة ٨ : ١٣ ـ ١٧). ومع كل هذا النجاح الذى أحرزه جدعون طلب منه أن يكون ملك العبرانيين ولكنه قال لهم: «. . . لا أتسلط أنا عليكم ولا يتسلط ابنى عليكم، الرب يتسلط عليكم» (قضاة ٨ : ٢٣)، ولكنه ظل قائداً لهم، فى دور القاضى على مدى أربعين سنة أخرى، وهكذا كان هو نمط الحاكم المسيحى المثالى والقائد فى المعركة.

ولا غرو أن جدعون كان شخصية مفضلة من شخصيات الكتاب المقدس فى عيون البيوريتان الإنجليز، كما كان بالنسبة لجون كنوكس والإصلاحيين الأستكتلنديين، الذين استخدموا مثاله لتبرير مقاومتهم للملكة الكاثوليكية مارى ملكة اسكتلندا. ومن الناحية التنميطية كان المديانيون يساوون الكاثوليك؛ بسبب عبادتهم المفترضة للأصنام (فقد كان الكالفينيون يعارضون بشدة كل أشكال التصوير الدينى) وعبادة الآلهة المزيفة. لقد سحق جدعون المذبح الوثنى، وكسب

الجماهير حوله بالتبشير، كما أنه قد هزم العدو بعصبة ضئيلة من الرجال المخلصين باسم الرب، وقد راق هذا بشكل كبير للغاية لكرومويل. وفي معركة مارستون مور الحاسمة سنة ١٦٤٤م، كان مصير المعركة معلقا حتى قام كرومويل على رأس قواته المتعصبة بمهاجمة خطوط الملكيين وهم يصيحون «سيف الرب وسيف جدعون» ونجحوا في اختراق صفوفهم. كانت هذه لحظة حاسمة في مصير الملك. هزيمته الكبرى الأولى. وفي صعود كرومويل إلى سيطرته النهائية على قوات المحافظين الملكية. وبالنسبة للعقلية البروتستانتية في القرن السادس عشر أو السابع عشر، كانت قصة جدعون تناسب موقفهم تماما. وتخلي جدعون عن دور الملك كان أيضا مصدر إلهام لقرار كرومويل الشخصي بألا يتوج ملكا، ولكن بأن يحكم انجلترا «باسم الرب».

وقد كرّس أندرو مارفل قصيدته الطويلة «السنوية الأولى للحكومة تحت حكم سموه السيد الحامي» لتحية كرومويل في مصطلحات تنميطية تماما.

وتماما مثلما كان انتصار جدعون على المديانيين هو في الحقيقة انتصار الرب، كذلك كانت انتصارات كرومويل على قوات الملك هي انتصارات الرب. وبعد معركة ناسبي سنة ١٦٤٥م كتب إلى وليام ليتهول: «هذا النصر ليس سوى يد الرب؛ وإليه فقط يعود المجد، حيث ليس لأحد أن يشاركه».

كانت قصة جدعون هي أكثر سابقة يذكرها الكتاب المقدس للرأى القائل إن إرادة الرب هي التي شاءت للحكام الطغاة والذين يعبدون الأصنام ممن تسلطوا على شعب الرب- مثل المديانيين أو الملكيين الإنجليز في القرن السادس عشر- أن تتم الإطاحة بهم بالقوة. ومثل جدعون أحس كرومويل أنه مدعو شخصيا ليكون محاربا في خدمة الرب. وقد أسماه ميلتون «رجل الرب الإنجليزي» وقبل النداء كان كلاهما فلاحًا.

والتعطش للدماء الذى أبداه البيوريتان في الحرب الأهلية عندما تم إقناعهم بأنهم يقومون بعمل الرب اتخذ مثالا في قصيدة لميلتون تتغنى بأمجاد كرومويل في الانتصارات التي حققها بما في ذلك هزيمته الدموية للملكيين، والاسكتلنديين، والقوات عند دونبار في اسكتلندا سنة ١٦٦٠م، وقبل ذلك عند برستون بلانكشير على نهر داروين.

والعلاقة بين الحرب الأهلية الإنجليزية فى القرن السابع عشر وحرب الاستقلال الأمريكية فى القرن الثامن عشر قد ذكرناها بالفعل. وفى حالة كرومويل كان المديانيون هم الملكيين الموصومين بعبادة الأصنام. وفى القرن التالى فى أمريكا الشمالية كان المديانيون هم البريطانيين، والتشابه النمطى هذه المرة لم يكن عبادة الأصنام وإنما كان هو الطغيان، على الرغم من أنه كان عند البداية ثمة تهديد كاثوليكى للپروتستانتية الأمريكية محسوسًا فى خلفية الأحداث.

بيد أنه كان هناك مشابهات شخصية أقل مع جدعون فى الحالة الأخيرة؛ وبدلا من ذلك كان أحد أكثر التلميحات شيوعا فى الكتاب المقدس هو الربط بين چورج واشنطن وموسى، كما لاحظنا من قبل. وثمة مثال على الإشارة إلى مثال جدعون يرجع تاريخه إلى ما قبل معركة كنجز ماونتين فى بلو ريدج ماونتيتر فى جنوب كارولينا سنة ١٧٨٠م عندما قام الوطنيون المحليون، وهم قوة تتألف أساسًا من البرسبيتاريان جُردت ضد البريطانيين، تم جمعهم قبل المعركة بخطبة ألقاها القسيس المحلى بلغت ذروتها بصيحة الحرب الكرومويلية القديمة «سيف الرب وسيف جدعون» التى رددها الجميع بحماسة جنونية. ومن نافلة القول أن نقول إنهم كسبوا المعركة، ومثل معركة مارستون مور كانت تلك علامة البداية لنهاية الملكيين. وكما كان معتادًا فى التنميط البروتستانتى ما أن يتم تحديد نمط عتيق من الكتاب المقدس، فإن الرب يفترض أنه يريد أن تجرى الأحداث بنفس الطريقة ويمكن طلب مساعدته، ولا شك فى أن أولئك الذين عرفوا أن الرب بجانبهم كانوا يستخدمون سيوفهم بمثل هذه الحمية العظيمة.

كانت نهاية معركة كينجز ماونتين واحدة من أكثر القصص وحشية فى حرب متوحشة، وهناك واحد من الناجين من الموالين، نقل عنه روبرت هارفى فى كتابه A Few Bloody Noses قد أخبر أحد زملائه كيف أنه بينما كان الجبليون يمرون عليه كان يتظاهر بالموت ولكنه كان قادرًا على ملاحظة وجوههم وعيونهم بشكل واضح؛ وبالنسبة له كان هؤلاء المحاربون بالبنادق الجسورون الشجعان يظهرون مثل شياطين عديدة من الأقاليم الجهنمية؛ تملأهم الإثارة وهم يندفعون فوق الجبال مثل الأسود» . أما البريطانيون (أى أولئك الأمريكيون الموالون للتاج أساسًا) فلم يلبثوا أن استسلموا، ولكن كثيرين منهم قتلوا على الرغم من ذلك، انتقاما من

المذبحة البريطانية التى جرت فى وقت سابق من الحملة . ويبقى ميدان المعركة تتناثر فيه جثث الموتى والجرحى الذين مات منهم كثيرون نتيجة الإهمال أو سوء العلاج، وتم شنق تسعة من الموالين . ومات كثيرون من السبعمائة أسير عند مسيرتهم صوب الشمال فيما بعد . أما الجنرال كورنواليس القائد البريطاني العام، فأدرك أن عدد الأمريكيين الموالين للتاج والمنضمين إلى قواته يتناقص، وأن الوحشية التى مورست ضد الأسرى الموالين بعد معركة كينجز ماونتين هى أحد الأسباب الرئيسية فى ذلك، بيد أن سلوك الموالين تجاه الوطنيين لو أنهم كسبوا المعركة لم يكن ليفضل هذا السلوك بالضرورة، فهذه هى طبيعة الحرب الأهلية . وكان فيرجسون قائد الموالين قد أصدر بالفعل إعلانا يهدد بشنق الزعماء الوطنيين وأن «يضع البلاد طعاما للنار والسيف» .

وثمة لاهوت لتاريخ الخلاص يكشف عن نفسه بوضوح فى سفر القضاة، وهو يوضح نموذجا فى العلاقة بين الرب والشعب المختار يحدث مرات ومرات فى العهد القديم وفى قصة الشعبين المختارين الجديدين فى انجلترا وأمريكا، وهو نموذج دورى إلى حد كبير عن الصحة الروحية الضائعة، والتى يتم استرجاعها بحيث يمكن للمرء أن يضعها تحت لافتة «أعراض الشعب المختار» و«نموذج الشعب المختار» .

إما أن يبقى شعب العهد مخلصين ومطيعين للرب، وإما يتوجب عليهم أن يعانوا عواقب عصيانهم، والتى يمكن أن تكون من خلال فعل متعمد أو بمجرد عدم الاهتمام بالحفاظ على وعود العهد . فالطاعة تجلب السلام والرخاء؛ ويؤدى هذا بدوره إلى التراخى التدريجى، وعدم الإخلاص فى نهاية الأمر؛ وتضعف الجماعة فى وحدتها ونسيجها الأخلاقى، ومن ثم فى قدرتها على مقاومة العدوان . وإذ يتم غزو الجماعة واضطهادها على أيدى الأعداء الوثنيين - أى غير المختارين - تستعيد الجماعة وضعها وتدرك أسباب متاعبها . ولهذا تتوب الجماعة وترجع إلى ممارسات الدين الحقيقى وتستعيد القوة على المقاومة وتحرر نفسها ، وتتوازى مع هذه الدورة الإنسانية دورة الرب . فحين يرى شعبه متراخيا أولا ، ثم غير مخلص، يسحب بالتدريج حمايته ويسمح للأشياء السيئة بأن تحدث، وبصورة مباشرة أو من خلال أحد الأنبياء من فترة لأخرى ، يرسل لهم مفاتيح ما جرى بطريق الخطأ حتى يفهموا

الرسالة. وبينما يرجعون إلى الإخلاص يسامحهم ويساعدهم على الإطاحة بأعدائهم مرة أخرى؛ وبذلك يعيدون الموقف إلى بداية الدورة (التى ما تلبث أن تبدأ إن عاجلا أو آجلا).

ويتحدث ساكفان بيركوفيتش فى «The Puritan Origins of the American Self» عن انجلترا فى القرن السابع عشر، ويصفها على النحو التالى:

«ألم يكن الإنجليز مثل العبرانيين الذين ذكرهم الكتاب المقدس، قد جمعهم الرب لهدف أرضى، بشرط أن يلتزموا بسلوك شرعى؟ وألم يحمل هذا التواصل دور انجلترا الخاص، بدون التجنى على حقوق للمختارين؟ إن إسرائيل الروحية كان لابد أن ترث المملكة: وكان بوسع إسرائيل الإنجليزية أن تزيح العقبات من طريق عودة المسيح. لقد كان حقا أن الإسرائيليين فشلوا فى عهدهم؛ بموت نحميا تخلى التدين عن مكانه للنفاق، وبمرور الوقت انتقم الرب انتقامًا عادلاً لنفسه؛ لأنهم أخلوا بوعودهم. بيد أن هذا لم يكن سببا لأن نفترض أن سفينة انجلترا القابلة للهلاك سوف تتبع مسار سفينة العبرانيين المؤدى للغرق. وعلى العكس فإن السابقة طوقتهم بطوق مزدوج للنجاح: باعتبارها تذكرة لفوائد الطاعة وتحذيرا من مغبة عدم الوفاء بالتزاماتهم. فإذا ما عاش الإنجليز ملتزمين بدورهم فى الصفقة، فإن الرب سوف يمنحهم الحماية الدنيوية، والقوة والامتياز الذى أسبغه من قبل على العبرانيين. وأكثر من ذلك، فإنه سوف يجعلهم سيفه ذا الحدين ضد تنين روما، وأداته فى التقدم السياسى والكنسى تجاه الألفية».

وقد تم تبنى هذا النموذج باعتباره تحذيراً تنميطيًا يصف الطريقة التى سوف تسلكها المجتمعات البروتستانتية - الذين يلعبون دورهم باعتبارهم شعب الرب الجديد - إذا ما صاروا هم أيضا متراخين وغير مخلصين. والأمر ليس بهذا الوضوح فى التنميط الكاثوليكى حيث يوجد افتراض راسخ منذ زمن طويل بأن الكنيسة لا يمكن أن تقع فى الخطيئة (على الرغم من أن الزعماء والأعضاء الأفراد فى الكنيسة يمكن أن يخطئوا).

كان الخوف من فقدان محاباة الرب حقيقيا بين المستوطنين اليوريتان الأوائل فى نيو إنجلاند الذين كانت فرصهم فى النجاة ضئيلة على الدوام.

وكان حتميا أن تسبب تطورات الحياة الاستعمارية توسيع الفجوة الثقافية بين انجلترا وأمريكا اللتين افتقرتا بصورة متزايدة إلى إحساس بالهوية المشتركة والمصير المشترك. ومع هذا كان ما يزال ممكنا الإيمان بشعب مختار أنجلو سكسونى واحد معرض لمحاباة الرب وغضبه. وكان ما يزال يمكن تطبيق التنميط البروتستانتى على هذا الكيان المشترك.

وقد أنهت الحرب الثورية بالضرورة هذا الإحساس الأنجلو-أمريكى المشترك نهاية مفاجئة. وكان الافتراض الأمريكى أن الاختيار قد انتقل إليهم من بريطانيا؛ بسبب انتهاكها الميثاق الإلهى بالسقوط فى هاوية الطغيان، ومنذ ذلك الحين فصاعداً كانت هذه المكانة الفريدة من حق أمريكا وحدها. ولكن البريطانيين كانوا يرون العكس. فقد كانت خسارة المستعمرات الأمريكية عقابا أنزله الرب على شعبه المختار، جزاء سلوكهم غير القويم. وقد دعاهم نبى - يدعى وليم ويلبرفورس - لكى يقوموا بتعديلات لكى يستعيدوا حب الرب. وكان لهذا أن يتم بإلغاء الرق. وإذا كانت أمريكا قد استمرت فى ممارسة الرق على حين حرمته بريطانيا فمن سيكون إذن الطاغية بين الأمم؟

وكان توماس چيفرسون قد حاول أن يضمن تطوير تجارة الرقيق كواحدة من التهم الموجهة ضد چورج الثالث فى إعلان الاستقلال، وقد ضمَّن فقرة اتهمت الملك «بشن حرب قاسية ضد الطبيعة البشرية نفسها، وانتهك أكثر حقوقها قداسة فى الحياة والحرية فى أشخاص ينتمون لشعب بعيد لم يحدث أبدا أن أساء إليه بأسرهم وحملهم إلى رق العبودية فى نصف الكرة الأرضية الآخر». وتم إسقاطها من الوثيقة النهائية نتيجة الضغط من جانب مزيج من ملاك العبيد الجنوبيين والتجار الشماليين، ولم يصدر أى حكم حول الملكية الفعلية للعبيد. فقد كان چيفرسون نفسه من ملاك العبيد.

وكان أول طلب بإلغاء تجارة الرقيق هو الذى جمعه الكويكرز البريطانيون وقُدِّم إلى البرلمان سنة ١٧٨٣م، وهى السنة التى أنهت فيها معاهدة باريس العداوة بين الإنجليز والأمريكان نهاية رسمية، وجاء الدعم القوى لهذه المطالب من الناس الذين يطلق عليهم اسم الميثوديين، وإلى حد كبير من خلال تأثير چون ويسلى الذين بدأ إدانته للرق فى مقالة عنوانها «Thoughts upon Slavery» فى سنة ١٧٧٤م.

ولم يبذل أية محاولة لتناول الموضوع فى مصطلحات الكتاب المقدس مناشدا إحساسا فطريا لدى الإنجليز بالعدالة. كما أنه لم يفعل أى شىء بحقيقة أنه فى الوقت الذى كان يكتب فيه كان قد تم تحويل عدد كبير من العبيد إلى المسيحية (على الرغم من أن موجة التنصير الكبرى بين العبيد لم تكن قد حدثت بعد).

وبحلول سنة ١٧٨٨م - أى بعد ست سنوات من معاهدة السلام التى أنهت الحرب الأمريكية البريطانية رسميا - كانت هناك طلبات أخرى لإلغاء الرقيق تكتب فى جميع أنحاء البلاد. كانت تلك هى السنة التى صدر فيها أول تشريع لتنظيم تجارة الرقيق البريطانية وتقرر ليندا كولى فى كتابها:

«Britons : Forging The Nation 1707 - 1837.»

«أسهم أيضا فقدان المستعمرات الأمريكية فى تنامى الحماسة للإصلاح البرلمانى والإصلاح الإمبراطورى، والتحرر الدينى، ولإصلاح السجون، ومستشفيات المجانين، والحماسة لأى تغيير يمكن أن يحول دون حدوث إهانة وطنية مماثلة فى المستقبل. ومع هذا فإن الحماسة الجديدة ضد الرق كانت مرتبطة بتجربة الهزيمة بطريقة خاصة. وكما رأينا كان البريتون أسرى إيمان قوى بالعناية الإلهية. ومثلما نسبوا انتصارهم فى الحروب السابقة إلى محاباة الرب للأمة البروتستانتية الرائدة، فقد كثيرون منهم يسعون آنذاك إلى تفسير الهزيمة التى بدت غامضة على أيدى المستعمرين بإخفاقهم أمام عينى الرب. لقد كانوا فاسدين ومتكبرين، كما أنهم شنوا الحرب ضد إخوانهم البروتستانت. وقد استحقوا العقاب الذى نالهم. فى هذه الحالة ظهرت تجارة الرقيق، التى من الواضح تماما أنها تثير تساؤلات كثيرة بالمصطلحات الأخلاقية، كما أنها تجلب المكاسب الدنيوية والرفاهية، أبعد ما تكون عن الضمان».

وقد أعلن أسقف دورهام، الذى كان يؤيد الدعوى الناجحة لإلغاء تجارة الرقيق فى مجلس اللوردات سنة ١٨٠٧م: «لقد كنا شعبا مفضلا لدى السماء أكثر من أية أمة أخرى منذ بداية الزمان، ولكننا يجب أن نعى كيف أننا خسرنا حماية العناية الإلهية بالظلم المستمر».

غامرت بريطانيا بخسارة مساعدة الرب، التى ضمنت لها الانتصارات على

الأساطيل الفرنسية عند نهر النيل وفى «الطرف الأغر» كان هذا كلاما خطيرا إذا آمنت به؛ لأن نجاة الوطن تعتمد عليه. وإذا أخفقت بريطانيا فى تحقيق مستوى السلوك المتوقع منها باعتبارها الشعب المختار، فإن الرب كان سيسمح للهزيمة فى الحرب أن تنزل عليها. كما أن ويلبرفورس، الذى صار واحدا من أكثر رجال الكنيسة تأثيرا فى جيله، جادل بأن إلغاء الرق سوف يكون عملا ضروريا للتكفير عن الذنب إذا ما كانت بريطانيا تريد أن تتطهر وتستعيد حماية الرب. وكما تلاحظ كولى: «بالنسبة لهذه الثقافة البروتستانتية المهيمنة، صارت معاداة الرق حقلاً يتسم بصرامة خاصة مع الرب. فإذا ازدهرت بريطانيا العظمى، فمن الواضح إذن أنها يجب أن تحافظ على العمل الطيب». وهكذا صارت معاداة الرق وسيلة وطريقًا لتوضيح أن لقب «الأمة المختارة» كان ما يزال بحوزة بريطانيا، وليست أمريكا، وصارت سببًا لمعاملتها على أنها أدنى من الناحية الأخلاقية.

إنها نقطة جدل حول ما إذا كان ويلبرفورس قد انضم إلى قضية معاداة الرق على يد قبطان بحرى سابق، هو جون نيوتن، أو بطريقة أخرى. إذ كان نيوتن قد مر بتجربة اعتناق المذهب الإنجيلى المميزة - التى تعرف باسم التغيير العظيم - عندما كان مسئولاً عن سفينة لنقل العبيد، وعلى الرغم من أن هذا لم يكن معتاداً بالنسبة للبروتستانت، فإنه قد تأثر أيضا بالكتاب الكاثوليكى الشهير الذى صدر فى القرن الرابع عشر «The Imitation of Christ» الذى ينسب إلى توماس آكمبيس. كان نيوتن هو كاتب الترنيمة الشهيرة «الرحمة المدهشة» التى لعبت دوراً مهمًا ومناسبًا بما فيه الكفاية فى حركة الحقوق المدنية الأمريكية فى ستينيات القرن العشرين. كما كتب كتابًا أدان فيه الرق بعنوان: Thoughts Upon the African Slave Trade واعترف نيوتن بخجله من البؤس والشقاء الذى كان واحدا من الذين تسببوا فيه. وقد كتب صديقه المقرب وليام كاوبر قصيدة عنوانها «شكوى الزنجى» تساءلت بأى حق إلهى استعبد الإنجليز الأفريقيين.

قرر ويلبرفورس، فى الوقت الذى حدث فيه «التغيير العظيم» له أن الرب وضع أمامه هدفين مبكرين «إلغاء تجارة الرقيق وإصلاح السلوك والعادات». وللمساعدة فى تحقيق إصلاح السلوك، أخذ قائمة من القضايا الطيبة الأخرى تتدرج من إصلاح السجون إلى عمل الأطفال، متضمنة إعفاء الكاثوليك من القوانين الجنائية، وهو

أمر يبدو غريبا بالنسبة لبروتستانتيه الراسخة. و هو بدوره جند أصدقاءه المقربين فيما يسمى طائفة كلافام. وهم إنجيليون كانوا عادة من أبناء الطبقة العليا أو الطبقة الوسطى. وشنوا سويًا حملتهم فى البرلمان. و فى البداية واجهوا سخرية كبيرة؛ إذ إن جمعية الأصدقاء (الكويكرز) فى بريطانيا كانت تشن حملاتها ضد تجارة الرقيق منذ سنوات عديدة. ومن بين الأعضاء الإثنى عشر الأصليين فى جمعية إلغاء تجارة الرقيق التى قامت سنة ١٧٨٧م، كان هناك تسعة من الكويكرز. وكان معظم زملاء ويلبرفورس فى مجلس العموم من حزب التورى ضد القيود على تجارة الرقيق، وكان عليه أن يعتمد على الهويج من أمثال تشارلز فوكس، ووليم جرينفيل، وريتشارد شريدان. وكان طلبه الأول لإلغاء الرق الذى قدمه سنة ١٧٩١م، قد لقى هزيمة عندما صوت ضده ١٦٣ مقابل ٨٠ صوتا معه. وقدم طلبات مماثلة عدة مرات مصحوبة بضجة عامة تتزايد باستمرار ـ على شكل اجتماعات، وطلبات ومنشورات ـ للمساندة. وأخيرا كسب أغلبية مجلس العموم سنة ١٨٠٥م، ولكنه هُزم فى مجلس اللوردات. وعلى أية حال فإنه تخطى آخر عقباته سنة ١٨٠٧م.

وفى ذلك الوقت كان جزء كبير من تجارة الرقيق فى أيادى البريطانيين. فقد بنيت ثروة موانئ مثل بريستول عليها. وكان على الأسطول الملكى وقفها. كانت عقوبة حمل العبيد مائة جنية استرلينى على كل عبد. وعندما كان القباطنة يواجهون مخاطر التفتيش ولكى يقللوا من الغرامات، كان قباطنة سفن العبيد يجبرون العبيد على القفز من السفن حيث يكون مصيرهم الغرق. وكانت الدوريات البحرية لفرض السياسة البريطانية أخذت ضريبة ثقيلة من رجال البحر البريطانيين على مر السنين. وقد زاد هذا من الاهتمام بإلغاء الرق نفسه وليس مجرد حركة نقل الرقيق. وفى البداية لم يوافق ويلبر فورس قائلا «إن منحهم الحرية فى الحال يعنى ضمان تدمير سادتهم وتدميرهم أيضا. يجب تدريبهم وتعليمهم الحرية». بيد أنه فى النهاية انضم إلى الجمعية الجديدة للتخفيف والإلغاء التدريجى للرق. وبعد موته بشهر واحد، فى يوليو سنة ١٨٣٣م، تم تمرير مرسوم إلغاء الرق، ليحرر كل العبيد فى الإمبراطورية البريطانية. وهو ما كان يعنى فى سياقه جزر الهند الغربية البريطانية أساسا. واستمر الرق على مدى جيل آخر فى الولايات الجنوبية بالولايات المتحدة الأمريكية، على الرغم من أن مورد العبيد الجدد قد تم قطعه بصورة فعالة بفضل الإغلاق البريطانى للسواحل الأفريقية.

كان دافع ويلبرفورس له جانب خارجي وجانب داخلي . وقد كتب في إحدى مقالاته المنشورة سنة ١٧٩٧م تحت عنوان :

Apractical view of the Prevailing Religion System of proffessed Christions in the Higher and Middle Classes in this Country Contrasted with Real Christianity ».

وأخذ من العهد القديم مبدأ أن مصائر الأمة تعتمد على رضاء الرب ، الذي يعتمد بدوره على السلوك بطريقة أخلاقية ودينية إنجيلية مناسبة .

وهكذا كان نجاح الأمة هو السبب الأولى لإصلاح سلوكها . ولكن النجاح كان بيد الرب ، وليس بيد الإنسان . وكذلك كان الحال مع الأفراد أيضا . أما دافعه الداخلي فكان هو الذي تعلمه من الحركة الإنجيلية التي بقيت داخل كنيسة إنجلترا وحاولت إصلاحها من الداخل . وقد شعر الإنجيليون ، بخلاف الكالفينيين ، أنه لايمكن لأي واحد أن يكسب الخلاص ، ولكن يمكنهم الاستجابة - بالتغيير العظيم - للنبضة الإلهية (التي تسمى الرحمة) . وعلى عكس البيوريتان ، كان الإنجيليون أقل ثباتا على العهد القديم وزرعوا إحساسًا بالعلاقة الشخصية مع المسيح . وإذا تم إنقاذهم ، فإنهم أظهروا خلاصهم بأعمالهم الطيبة ، التي كانت بالتالي استجابة للخلاص ، وليس طريقة لتحقيقه . وكان الإنجيليون مثل معظم البروتستانت حتى منتصف القرن العشرين على الأقل ، على قناعة ثابتة بأن الكنيسة الكاثوليكية تعلم مذهبا صارما للخلاص بالأعمال ؛ وباعتبارهم بروتستانت طيبين كانوا مرتبطين بواجبهم ، بالتالي ، يستبعدون من أية فكرة دينية أية تكاليف تشير إلى هذا .

كان الإنجيليون ، مثل الكالفينيين واثقين من خلاصهم ، ولم يقلقوا بشأنه . وكان كثير منهم يحتفظون بمذكرات يسجلون فيها كل خطيئة مهما كانت ضآلتها ، خوفًا من أن تكون علامة على أنهم يرتدون إلى الوراء . وكان العلاج للمختار دائما هو المزيد من التكريس للخدمة العامة . وكانت النتيجة أنهم كانوا ملتزمين ككل «بديانة أعمال» على حين كانوا ينكرون ذلك . وقد أسس ويلبرفورس نفسه أو تزعم جمعيات إنسانية لا تحصى ، وحملة ضد الرق ، وكان نشطًا لصالح كل هذه القضايا ، كما أنه كان يؤمن بأن الرب قد اختاره - وذلك قبل أن يكتب إليه جون

ويسلى مؤسس طائفة الميثوديين، خطابا يخبره فيه بهذا، وذلك قبل - بزمن طويل - أن يكتب، والواقع أن خطاب ويسلى كان آخر شيئًا كتبه، وعبر فيه عن تكريسه لقضية محاربة الرق. والسبب فى أن كلا من ويسلى وويلبرفورس قد انتهى بالانضمام إلى كنيسة مختلفة، كان هو أن ويسلى توجه بدعواه إلى الرجل العادى، أما ويلبرفورس فقد توجه بها إلى الخاصة والنخبة. ووفقا لرأى ويلبرفورس فإن المسيحية علّمت الغنى أن يكون متحرراً ومحسنًا، وعلمت الفقير أن يكون متواضعًا ومثابرًا وصبوراً. واعتقد أن كل الفروق الإنسانية ستختفى فى العالم الآخر، وليس فى هذا العالم.

ولاغرو أن ويسلى كان له أتباع فى أمريكا. وفى تقدمة قوية لإيمانه فى رعاية الرب، أخبر ويلبرفورس أنه لن ينجح مالم يشأ الرب أن يساعده. وقد أشار إلى مقالة كتبها أحد العتقاء هو جوستافوس ڤاسا، كان قد تم خطفه من أفريقيا، وأخذ إلى بربادوس ثم أحضر إلى انجلترا واعتنق مذهب المسيحية الإنجيلية، وتم إقناعه أن المسيحية والرق لا يتفقان. وفى ذلك الوقت تقريبا كان كتيب عنوانه Treatment and Conversion in The British Sugar Colonies كتبه چيمس رامزى، وترك أثرا هائلا يجادل بأن العبودية تحول دون اعتناق المسيحية. وفى مجادلة من المجادلات التى استخدمتها هاريت بيشر ستو بعد حوالى سبعين سنة، استخدمت بقايا هذه الحجة، وكان رامزى يجادل بأن «الرجال لن يستجيبوا للدروس الخلاص التى يلقيها على مسامعهم أولئك الذى يستعبدونهم على الأرض، أو للدروس عن السماء على حين أنهم محجوزون فى الجحيم».

بيد أن التبرير الأصلى للرق ورد فى الكتاب المقدس، واعتمد المسيحيون عليه على مدى عدة قرون، وهذا يوازن إلى حد ما الزعم بأن المسيحية عموما، والمسيحية الإنجيلية خصوصا يمكن أن تأخذ جدارة أخلاقية كبرى؛ لأنها كانت على رأس حركة لإلغاء الرق، فى كل من بريطانيا وأمريكا. فإذا كانت شرا محاه المسيحيون فإنه بالقدر نفسه كان شرا خلقه المسيحيون ودافعوا عنه. وحقيقة أن كثيرا منهم لم يكونوا إنجيليين، بينما هم مؤمنون صادقون، قد تم تفسيرها بشكل كاف من خلال الحقيقة القائلة بأن المذهب الإنجيلى كان ظاهرة لاحقة نسبيا فى تاريخ البروتستانتية، وحقيقى أيضا أن الإنجيلية باهتمامها الخاص بتجارب اعتناق الكبار

لمذهبها كان لها لاهوت لا ينحصر المسيحية البروتستانتية فى حدود جنس واحد أو عقيدة واحدة؛ إذ إن القدرية الكالفينية الصارمة - بأن الرب قد قرر سلفا من سيتم خلاصه ومن لن يتم خلاصه - والتأكيد الأنجليكانى على عضوية الكنيسة بفضل كون المرء قد ولد إنجليزيا، لم يكن كلاهما يحبذ فكرة أن أى واحد يمكن أن يتم خلاصه بغض النظر عن جنسه أو لونه أو وطنه. كان الإنجيليون مهتمين بشكل خاص بتصير الناس أو تحويلهم إلى مذهبهم. وحقيقى أيضا أن عقيدتهم كانت أكثر ارتكازا على العهد الجديد منها على العهد القديم. وتوصف كنيسة العهد الجديد بأنها كنيسة مفتوحة لكل القادمين، على حين كان اعتناق اليهودية أمرا صعبًا وإن لم يكن مستحيلاً، وربما كان الإنجيليون أقل تأثرا بالمجادلات التى قامت على أساس تأييد العهد القديم للرق. وهم كانوا أكثر ميلا إلى رؤية عدم الاستمرارية، بل والتناقضات بين العهد القديم والعهد الجديد أكثر مما يرون فيهما الاستمرارية والاتفاق بينهما - لقد كانوا باختصار إحلاليين بدرجة أكبر. ومع هذا فإنه ليس هناك صراع واضح بين ما قاله العهد القديم عن العبودية وما قاله العهد الجديد. فقد أباحها العهد القديم: أما العهد الجديد فلم يمنعها.

لم يكن تبرير العهد القديم للعبودية مما يمكن أن نسميه اليوم عنصرية، أى أن جنسا يعلو فوق جنس آخر. بيد أن الكالفينية بشكل خاص لجأت إلى العهد القديم على أسس مشابهة، فاقتبست قصة لعنة نوح على كنعان ابن حام بعد أن أهان حام أباه عندما لفت الانتباه إلى عُرْيه. وكان يفترض أن الأجناس السوداء قد انحدرت من نسل حام، على أنه لم يحدث أبدا أن كان هناك أدنى دليل يثبت مثل هذه النظرية، وكان النص الخاص الذى اعتمدوا عليه من سفر التكوين (٩ : ٢٥ - ٢٧):

«فقال ملعون كنعان. عبد العبيد يكون لإخوته. وقال مبارك الرب إله سام وليكن كنعان عبدا لهم ليفتح الله ليافث فيسكن فى مساكن سام. وليكن كنعان عبدا لهم».

هذا النص اعتمد عليه البروتستانت فى أعماق الجنوب فى الولايات المتحدة، ليس فقط لتبرير الرق حينما كان موجوداً، وإنما أيضا لتبرير استمرار خضوع السود حتى بعد أن انتهى الرق، وبذلك يبررون التفرقة العنصرية.

وهناك أمثلة متكررة من العهد القديم عن الإسرائيليين المتصرين وهم يأخذون الأسرى أرقاء وعبيدا، وهى عادة راسخة فى العالم القديم. وقد رسم سفر اللاويين قواعد صارمة لأخذ العبيد، إذ لا يمكن للإسرائيلى أن يستعبد إسرائيليا آخر سوى بموافقته (لتسوية دين مثلا)، ويكون ذلك حتى السنة اليهودية اليوبيلية التالية فقط، والتى تجيء كل سبع سنوات، ولا يجب بيع مثل هذا العبد لآخر، كما لا يجب معاملته بقسوة، ولكن العبيد يمكن أن يؤخذوا من القبائل الوثنية دونما حدود ويبقى أولادهم وأولاد أولادهم فى رق العبودية. ويمكن شراؤهم وبيعهم، ولا تنطبق عليهم قاعدة عدم المعاملة بقسوة. وفى بعض الدول الكاثوليكية فى العصور الوسطى، فسر البعض القاعدة الواردة فى سفر اللاويين عن تحرير العبد الإسرائيلى فى السنة اليوبيلية القادمة بأن العبد الذى يعتنق المسيحية (أى انضم إلى الشعب المختار) ينبغى إطلاق سراحه فى الحال. ولا حاجة للقول إن هذا لم يطبق فى أمريكا البروتستانتية أو جزر الهند الغربية البريطانية البروتستانتية، وكان أحد الأسباب وراء عدم قدرة العبيد المسيحيين على رؤية سادتهم على أنهم مسيحيون مثلهم. وفى سفر اللاويين (٢٥ : ٣٩-٤٦):

«وإذا افتقر أخوك عندك وبيع لك فلا تستعبده استعباد عبد. كأجير نزيل يكون عندك إلى سنة اليوبيل يخدم عندك. ثم يخرج من عندك هو وبنوه معه ويعود إلى عشيرته. وإلى ملك آبائه يرجع لأنهم عبيدى الذين أخرجتهم من أرض مصر لا يباعون بيع العبيد. لا تتسلط عليه بعنف بل اخش إلهك. وأما عبيدك وإماؤك الذين يكونون لك فمن الشعوب الذين حولكم. منهم تقتنون عبيدا وإماء، وأيضا من أبناء المستوطنين النازلين عندكم. منهم تقتنون ومن عشائرهم الذين عندكم الذين يلدونهم فى أرضكم فيكونون ملكا لكم. وتستملكونهم لأبنائكم من بعدكم ميراث مُلك. تستعبدونهم إلى الدهر. وأما إخوتكم بنى إسرائيل فلا يتسلط إنسان على أخيه بعنف».

ويشير سفر الخروج أيضا إلى القاعدة بتحرير العبيد العبرانيين كل سبع سنوات، وهو يوضح مدى ما يمكن أن يذهب إليه المالك من وحشية فى معاملة عبيده (غير العبرانيين)، ويعلن مبدأ أن العبد ملك خاص من أملاك سيده: يقول سفر (الخروج ٢١ : ٢٠-٢٧):

«وإذا ضرب إنسان عبده أو أمته بالعصا فمات تحت يده يُنتقم منه . لكن إن بقى يومًا أو يومين لا ينتقم منه لأنه ماله . وإذا تخاصم رجال وصدموا امرأة حبلى فسقط ولدها ولم تحصل أذية يغرم كما يضع عليه زوج المرأة ويدفع عن يد القضاة. وإن حصلت أذية تعطى نفسا بنفس . وعينا بعين وسنا بسن ويدا بيد ورجلا برجل وكيا بكى وجرحا بجرح ورضا برض . وإذا ضرب إنسان عين عبده أو عين أمته فأتلفها يطلقه حرا عوضا عن عينه وإن أسقط سن عبده أو سن أمته يطلقه حرا عوضا عن سنه» .

وكان العهد الجديد أكثر اعتدالا ، ففى رسالة غلاطية يبدو القديس بولس الرسول وكأنه يقترح أنه لا يهم ما إذا كان شخص ما عبدًا ، عندما يعلن :

«ليس يهودى ولا يونانى ليس عبد ولا حر . ليس ذكر وأنثى لأنكم جميعا واحد فى المسيح يسوع» .

(رسالة بولس الرسول إلى أهل غلاطية ٣ : ٢٨) .

وفى رسالته إلى أهل كولوسى (٣ : ٢٢) يؤكد على واجب الطاعة :

«أيها العبيد أطيعوا فى كل شىء سادتكم حسب الجسد لا بخدمة العين كمن يرضى الناس بل ببساطة القلب خائفين الرب» . ولكن هذه التعاليم تلوم مالكى العبيد الذين يتسيدون عبيدهم ، والواقع أنهم يستمتعون بأملاكهم أيًا كانت . وحب التملك والفخر والغطرسة صفات لا تليق بالمسيحى : وفى رسالة بولس الرسول الأولى إلى تيموثاوس (٦ : ١ ـ ٧) :

«جميع الذين هم عبيد تحت نير فليحسبوا سادتهم مستحقين كل إكرام لئلا يفترى على اسم الله وتعليمه ، والذين لهم سادة مؤمنون لا يستهينوا بهم لأنهم إخوة ، بل ليخدموهم أكثر لأن الذين يشاركون فى الفائدة هم مؤمنون ومحبوبون . علم وعظ بهذا .

إن كان أحد يعّلم تعليما آخر ولا يوافق كلمات ربنا يسوع المسيح الصحيحة والتعليم الذى هو حسب التقوى ، فقد تصلف وهو لا يفهم شيئا ، بل هو متعلل بمباحثات ومماحكات الكلام التى منها يحصل الحسد و الخصام والافتراء والظنون الردية ومنازعات أناس فاسدى الذهن وعادمى الحق يظنون أن التقوى تجارة . تجنب

مثل هؤلاء. وأما التقوى مع القناعة فهي تجارة عظيمة؛ لأننا لم ندخل العالم بشيء وواضح أننا لا نقدر أن نخرج منه بشيء».

وفي رسالة بطرس الرسول الأولى (٢ : ١٨ ـ ٢٠) يتخذ بطرس الرسول نفس الخط :

«أيها الخدم كونوا خاضعين بكل هيبة للسادة ليس الصالحين المترفقين فقط، بل للعنفاء أيضا. لأن هذا فضل إن كان أحد من أجل ضمير نحو الله يحتمل أحزانا متألما بالظلم. لأنه أي مجد هو إن كنتم تلطمون مخطئين فتصبرون. بل إن كنتم تتألمون عاملين الخير فتصبرون فهذا فضل عند الله».

وكثيرا ما أكد مؤرخو الرق مزاياه الاقتصادية بالنسبة للأمم التي تقوم بالاسترقاق، لاسيما بالطريقة التي تستخدم العبيد فيها في زراعة المحاصيل التي تتطلب عملا كثيفًا مثل زراعة قصب السكر، أو الدخان والقطن، بحيث تكون أرباحها عالية، ومن ثم كانت تجارة الرقيق وافرة الأرباح أيضا. هذا التركيز على اقتصاديات الرق قد حجب الجانب الديني، الذي ربما كان أكثر أهمية، فقد كان أول ملاك العبيد في القارة الأمريكية هم الإسبان والبرتغاليين الذين أحسوا أن لهم الحق في امتلاك العبيد، ليس فقط على أساس من الكتاب المقدس، ولكن لأن ذلك كان يتماشى مع تعاليم الكنيسة الكاثوليكية؛ إذ إن القديس أوغسطين والقديس توماس (الأكويني) أباحاه، كما أن بعض البابوات ومنهم جريجوري الكبير، كانوا من مالكي العبيد. ويمكن أن يكون هناك قليل من الشك في أن الكنيسة الكاثوليكية لو أدانت الممارسة في البداية لما كان للرق أن يجد له مكانا في الجزء الكاثوليكي من العالم الجديد، ولما كان سينتشر أيضا في المستعمرات البروتستانتية في الشمال، التي لم توافق في البداية على ممارسات الرق الإسبانية والبرتغالية باعتبارها أمثلة إضافية على الطغيان الكاثوليكي.

وسرعان ما صار استرقاق الأهالي الأصليين، لا سيما من جانب الإسبان قصة من قصص الرعب البروتستانتية، وحسبما يقول إدموند س. مورجان في كتابه :
«American Slavery, American Freedom»

«انحط قدر الأهالي الأصليين إلى أن يصيروا عينات من العبودية أو الرق

وتدهورت أعدادهم بصورة كارثية. وفى مكانهم جلب الإسبان عبيدا من أقاليم أخرى، خصوصا من أفريقيا، وبينما انتشرت القصة فى أرجاء أوروبا فى الصحفات المدهشة للمؤرخ الإسبانى بيتر مارتير، وفى الصفحات المثيرة للراهب الدومينيكانى بارتيلميو دى لاسى كاساس، فإنها أضافت أبعادا جديدة للصورة الأوروبية التقليدية عن القسوة الإسبانية».

وأثناء حكم مارى تيودور (مارى الدموية) التى تزوجت من ملك إسبانيا، كان اضطهاد المنشقين وإحراقهم فى انجلترا مرتبطا فى الذهن العام بقسوة الإسبان تجاه الهنود الذين استعبدوهم. وقد استعار چون بونيت، الأسقف السابق لوينشيستر من پيتر مارتير (الذى كان من أوائل البروتستانت الإيطاليين) قصة العبيد الذين أرغموا على العمل فى التنقيب عن الذهب تحت الشمس الحارقة دونما راحة؛ مما تسبب فى موت الكثير منهم، ولم يكن الإنجليز ليقسون بهذا القدر؛ إذ كان على مارى أن تتذكر أنها تحكم «أمة من الرجال الأحرار وليست من الأرقاء» حسبما حذر بونيت، واستخدم أمثلة من الكتاب المقدس ليبين كيف أن النصوص المقدسة أباحت الإطاحة بالحاكم الطاغية.

وحينما صارت القرصنة ضد السفن الإسبانية وإثارة المتاعب فى الممتلكات الإسبانية هى سياسة الدولة تحت حكم الملكة إليزابيث، فإن قادتها البحريين، والذى كان رئيسهم فرانسيس دريك، أثاروا العصيان بين العبيد الأفريقيين الهاربين والهنود المحررين. بيد أن هذا لم يكن تماما لصالح قضية الحرية ومعاداة الرق بصورة خالصة؛ ذلك أن دريك أيضا كان يتعامل فى الرقيق.

ولم تكن الجهود التى بذلتها الكنيسة الكاثوليكية فى إسپانيا لتحديد القيود على حقوق المالك على العبد فعالة سوى بصورة جزئية؛ ولكنها على الأقل أرست معياراً قياسيا كان يمكن للقساوسة فى أمريكا الوسطى والجنوبية أن يوجعوا ضمائر ملاك العبيد فى مناطقهم الكنسية. وبفضل جهود القسيس الإسپانى الدومينيكانى لاس كاساس، الذى يستحق جائزة كونه أول أوروبى يقدر هول الرق الأفريقى والهندى الأحمر، تغيرت القوانين الإسپانية بحيث لم تعد وضعية العبد وراثية، وعندما صار أسقف خياباس فى جواتيمالا سنة ١٥٤٥م جلب تنظيمات ترفض إجراء الطقوس والأسرار المقدسة لمالكى العبيد الذين لا يستجيبون لها. وإدانته

للرق والاستعمار الإسبانى عموما، حظيت ببعض التعاطف من جانب السلطات الإسبانية بما فيهم الملك، ولكنها لقيت مع ذلك اعتراضا من المكائد التى دبرها المستوطنون الإسبان، وكتب تقريراً مسهبًا عن شرور النزعة الاستعمارية التى شاهدها، مع تحذير بأن الرب سوف يعاقب إسبانيا إذا لم تعدل طريقتها. وصار اسمه إلهاما لحركة معاداة الرق مرة أخرى فى القرن التاسع عشر.

وطبقًا لكتاب تاريخ الكنيسة الزنجية The History of Negro Church الذى كتبه كارترج. وودسون، فإن ماريلاند التى كانت فى الأصل ولاية كاثوليكية، كانت هى المستعمرة الأمريكية الوحيدة التى أخذت بجدية واجبها فى التبشير بالإنجيل بين العبيد السود، وقبلت أن النتائج ستكون تحرير الأرقاء الذين يعتنقون المسيحية.

« بعد قدر من المعارضة، واجه شعب تلك المستعمرة اختيار التبشير بالإنجيل للكل بغض النظر عن اللون. وكان أوائل القساوسة والمبشرين العاملين فى ماريلاند يعتبرون أن من واجبهم أن ينوروا العبيد، وأن يجعلوا استعدادهم كافيًا، عندما صارت تعليمات وسطاء الكنيسة أكثر انتظاما للفهم الصحيح لمذهب الكنيسة، وتم تقديم نوع من التعليمات للزنوج المرتبطين بهذه المؤسسات فى التمسك بالعاطفة التى تم التعبير عنها فى القوانين الأولى التى أصدرها الحكام الإسبان والفرنسيون، وفيما بعد فى القانون الأسود الذى يحكم الأرقاء فى المستعمرات التى كان يسيطر عليها اللاتين.

وعلى الرغم من أن موقف الرواد الكاثوليك لم يكن مشجعا بالمرة لحركة تحويل الزنوج إلى المذهب الإنجيلى، فإن المساعدة التى جاءت من البروتستانت المستوطنين فى المستعمرات الإنجليزية كانت أقل.

وقليل من الرواد، إذا كان هناك أحد منهم على الإطلاق، من بريطانيا العظمى هم الذين كانت لهم الروح التبشيرية التى كانت لبعض اللاتين. وإذ كان الإنجليز مهتمين أساسا فى تأسيس أوطان جديدة فى أمريكا، فإنهم ظنوا أن الزنوج ليسوا موضوعا للعمل الخيرى الإنسانى المسيحى، وإنما هم أدوات يمكن بها أن يصلوا إلى هذا الهدف. ومن ثم فإنه ليس غريبا أنه مع تقديم الرق باعتباره عاملاً اقتصاديًا فى تطور المستعمرات الإنجليزية، لم يتم توجيه سوى قدر قليل من الاهتمام

لحاجات الزنوج الروحية، وخاصة عندما جابهوا القانون غير المكتوب الذى يقضى بأنه لايمكن استرقاق المسيحى.

أما فى المستوطنات الشمالية البروتستانتية، لم تكن أى قيود دينية تكبح تجاوزات أى مالك للعبيد، سوى فيما يتعلق باستخدام عبيده للأغراض الجنسية. ومع هذا فإن كثيرا من ملاك الرقيق ممن كانوا مسيحيين بروتستانت أخيارا قد حاولوا بالفعل معاملة عبيدهم بطريقة إنسانية عموما، واستخدام العبيد خدمًا فى المنازل ومربيات للأطفال خاصة؛ أدى فى بعض الأحيان إلى وجود روابط محبة حقيقية بين المالك والمملوك.

والحقيقة أن الأساس الفلسفى للرق، إذا ما تناولناه كفكرة خالصة، ليس خطأ بهذا القدر من الوضوح. فالإمبراطورية العثمانية مثال على مجتمع أمكن فيه للرقيق أن يرتقوا المناصب العليا ويمتلكوا الممتلكات ويتزوجوا ويكونوا عائلات. وكانت بعض ممارسات الرق فى أفريقيا مشابهة، وحتى فى المجتمعات الغربية الحديثة، يمكن إتاحة فرصة العمل أمام المسجونين. والتجنيد فى الجيش الوطنى زمن الحرب نوع من العبودية: إذ إن القوات البريطانية التى صدرت لها الأوامر بحفر الخنادق على الجبهة الغربية سنة ١٩١٦م لم تكن أكثر حرية فى الرفض من عبيد فرعون، كما أنهم كانوا عرضة مثلهم للإعدام إذا رفضوا، والعامل الأجير يبيع عمله بالساعة؛ وليس من الواضح مباشرة لماذا لا يبيع عمله طوال عمره، إذا ما كان يريد ذلك. بيد أن هذه الفذلكة النظرية عن الرق تخفى حقيقة ما حدث بالفعل للملايين الذين تم اختطافهم من العبيد الأفريقيين فى المستعمرات الأوروبية فى العالم الجديد، ثم فى أمريكا المستقلة فيما بعد؛ إذ إنهم لم يكونوا يعاملون بوصفهم بشرا وإنما كالحيوانات، وحيوانات الحمل والجر. ولم يكن عملهم هو المملوك قانونا وإنما وجودهم كله، حياتهم، جسدا وروحا. وحتى الرومان لم يخضعوا عبيدهم لمثل هذا الهوان.

وإذا ما وضعنا فى اعتبارنا كيف أنه غالبا فى تاريخ الأسطورة الأنجلو-أمريكية عن الشعب المختار يكون الحب البروتستانتى للحرية معارضا للكاثوليكية باعتبارها تجسيدا للطغيان والعبودية، فإن السجل الحقيقى للكنيسة الكاثوليكية فى مسألة العبودية يستحق دراسة أكثر تفصيلا. والحوار الذى جرى فى إسبانيا القرن السادس

عشر والقرن السابع عشر حدث في كل مكان آخر في العالم الكاثوليكي الأوروبي، مع كثير من المناقشة العقلية عمّا كان وعمّا لم يكن مسموحا به في طريق الرق. وكانت الخلفية هي حقيقة أنه منذ العصور الإمبراطورية الرومانية لم يختف الرق من منطقة البحر المتوسط، كما أنه مورس على نطاق واسع من جانب الدول الإسلامية. بما في ذلك الأتراك. ففي العصور الوسطى تم وضع فروق دقيقة بين الطرق المختلفة للرق. وكان أكثر هذه الطرق شيوعا هو الأسر في المعركة (فقد كان الرق هو المصير المشترك لأسرى الحرب)، وثمة طريقة أخرى تمثلت في إدانة المرء كمجرم؛ مما كان يؤدي إلى عبوديته مدى الحياة أو لفترة من الزمان. وكان يمكن دفع فدية لأسرى الحرب الأرقاء، بطلب من بلادهم أو من عائلاتهم. وأيًا كانت الطريقة فقد كان يمكن بيع العبيد وشراؤهم، ولكن ثمة تفرقةً وتمييزاً تم في زمن مبكر بين النخاسة (حيث كانت ملكية العبد مثل ملكية حيوان للنقل) أو الرق المسيحي حيث كان يسمح لمالكي العبيد أن يمتلكوا ويبيعوا عمل العبد، ولكن لا يسمح لهم بقتل العبد أو بتر عضو من أعضاء جسده، أو إيذاء أخلاقه أو أخلاقها (وهو ما كان يمنع العبودية الجنسية).

وكان الملاك الذين يشترون عبدا يؤمرون بأن يتحروا إذا ما كان العبد قد خضع للاسترقاق بطريقة عادلة، أو ظلمًا، حسب المعايير المذكورة من قبل. وطالما أن العبد الذي تم استرقاقه ظلما كان يجب إطلاق سراحه، فإن هذا كان يجعل الملاك يحجمون عن شرائهم. كان الملاك يسمح لهم بشراء العبيد الذين تم استعبادهم ظلما، على أية حال، بشرط إطلاق سراحهم بعد أن يؤدوا أعمالاً تكفي لاستعادة الثمن الذي دفع في شرائهم، وكانت هناك مناقشات كثيرة حول ما إذا كان العبيد من الهنود الحمر، الأهالي في أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية، قد استرقوا بصورة عادلة أم بصورة ظالمة، وهو الأمر الذي اعتمد على ما إذا كانوا قد أسروا في الحرب، أم تم خطفهم في غارة قامت بها إحدى العصابات أو المجموعات. وفي الواقع غالبا ما كان يتم تجاهل هذه النظريات الدقيقة، بيد أنها كانت أكثر تحضراً بكثير إذا ما قورنت بممارسات الرق الأنجلو أمريكية فيما بعد. وفي بعض الأحيان كان الفاتيكان يتدخل بقوة لصالح العبيد. فمثلاً في سنة ١٥٩١م صدر مرسوم بابوي إلى أسقف مانيلا في الفيليبين حول الموضوع، وحسب ما أورده چون

فرانسيس ماكسويل فى كتاب Slavery and The Catholic Church فإن هذا أوضح «أن كثيرا من الإسپان فى جزر الفيليپين قدروا أن عليهم واجبا بعمل تعويض للهنود عن الأضرار والدمار الذى لحق بهم وبممتلكاتهم على أيدى الإسپان. واتباعا لشروط المرسوم الملكى أمر البابا بتحرير كل العبيد الهنود الذين يمتلكهم الإسپان فى الفيليپين وإلا تعرضوا لعقوبة الحرمان الكنسى».

وبعد ذلك بأقل من مائة سنة، أى فى سنة ١٦٨٦م، صار الڤاتيكان مهتما بتجارة الرقيق الأفريقية، وأصدر المكتب المقدس لمحاكم التفتيش تعليمات إلى الكاثوليك الذين ربما يجدون أنفسهم متورطين فيها، ويقرر ماكسويل:

«بصفة عامة يجب على التجار الكاثوليك أن يفرقوا بين الزنوج الذين تم استعبادهم بطريقة عادلة، وأولئك الذين استعبدوا ظلما، والأسر بالقوة أو الخداع ثم ما يتبعه من المتاجرة فى الزنوج الأبرياء المسالمين وغيرهم ممن يعيشون فى أقاليم الغابات، غير قانونى من الناحية الأخلاقية. والتجار الذين يحتجزون مثل هؤلاء الأشخاص الذين تم استرقاقهم بطريقة غير عادلة، عليهم أن يحرروهم ويعوضوهم عن الأضرار التى لحقت بهم. وإذا شك المشترون فى أن المعروضين للبيع قد استعبدوا بصورة ظالمة فإن عليهم أن يستفسروا عن عدالة اللقب الذى يحتجزون بمقتضاه».

وفضلاً عن ذلك أصرت الكنيسة على حقوق العبد الذى تم استعباده ظلمًا فى أن يرفض أن يشتريه مسيحى إذا كان ذلك ضد ضميره. واضطرب هذا التناول الأخلاقى السامى فى مسألة ملكية العبيد عندما تعلق الأمر بتدبر حقوق أبناء العبيد. إذ كان من المسلم به عموما فى داخل الكنيسة الكاثوليكية حتى القرن التاسع عشر أن ابن العبد الذى دخل العبودية بصورة عادلة يمكن امتلاكه أيضا بصورة عادلة إلى مابقى من عمره.

وهذا كله لا يتعلق إلى حد ما بتجارة الرقيق عبر الأطلنطى بطبيعة الحال؛ لأن أحدا لم يكن يتظاهر بشكل جدى أن العبيد المنقولين من أفريقيا لكى يباعوا فى أمريكا تم استعبادهم بشكل عادل كأسرى حرب، أو مجرمين، أو أطفال لعبيد. لقد كانوا رقيقا مثل الممتلكات المنقولة، ليست لهم أية حقوق على أشخاصهم، أو

حياتهم، وليست هناك حماية لأخلاقياتهم أو اعتبار لأرواحهم أيًا كان. وبعد إلغاء تجارة الرقيق على أيدى البريطانيين، وافق البابا بيوس السابع على طلب الحكومة البريطانية بمساندة الجهود فى مؤتمر ڤيينا سنة ١٨١٥م لاعتبار تجارة الرقيق غير قانونية على المستوى العالمى.

وليست مصادفة أن الرق كان له تاريخ طويل كموضوع مثير للجدل الأخلاقى. إذ كان كثير من المسيحيين الأوائل من الطبقات الأدنى فى الإمبراطورية الرومانية. بل إن المسيحية ذاتها صارت تعرف بأنها ديانة العبيد. ولم يكونوا يعتبرون أن من تعاليم الدين الجديد أن يرفعوا راية العصيان ضد سادتهم. والواقع، أن هذا المثال غالبا ما كان يقدم عندما كان المدافعون عن الرق فى أمريكا الجنوبية يجيبون على الحملة الدينية المتصاعدة لإلغاء الرق فى الشمال، فى السنوات الستين الأولى من القرن التاسع عشر.

ومع هذا فقد خسروا هذه المجادلة، وكان جزء من السبب راجعًا إلى أن أنصار الإلغاء تبنوا حججًا دينية تشبه تلك الحجج التى كانت سائدة فى بريطانيا قبل نصف قرن. ومؤداها أنه إذا كان الشعب المختار لا يتصرف بشكل عادل فإنهم يخاطرون بخسارة رضى الرب، وستكون الأمة حينئذ عرضة للمصائب. فلم تكن العبودية بحد ذاتها ضد إرادة الرب، ولكن ما كان ضد إرادته هو الفقر والقسوة الفعلية التى كانت تصاحبها فى الممارسة التى كانت تصاحب العبودية دائما.

وفى حالة أمريكا، على نحو خاص، اختلط موضوع الرق بمسألة حقوق الملكية. وأية محاولة لرفع نوعية الحياة التى يحياها العبيد بإجبار ملاكهم على أن يسلكوا سلوكا أفضل، كانت تقابل بالشكوى من أن هذا تدخل فى حرية ممارسة حقوق الملكية، وهو نوع من «البقرة المقدسة» كان شائعا بين الملاك فى أمريكا. ونتيجة لهذا التردد فى تنظيم الرق، كان توزيع القوة بين العبد والمالك مختلا لدرجة أن أبشع أنواع الظلم كانت أمورًا حتمية.

ولم يكن هناك كتاب أشد تأثيرًا لصالح أنصار الإلغاء من رواية «كوخ العم توم» التى كتبتها هاريت بيشر ستو - والتى حياها إبراهام لنكولن أثناء الحرب الأهلية بوصفها السيدة الصغيرة التى أشعلت هذه الحرب الكبيرة». وقد كتبت آن دوجلاس

فى تقديمها لطبعة بنجوين من هذه الرواية: «لم يكتب أحد تقريبا فى أمريكا المعادية للحرب عن الرق فى مصطلحات علمانية؛ إذ إن المدافعين عن الرق شرحوه باعتباره ضرورة اقتصادية وترتيبًا إلهيًا؛ وقد أشاروا بفخر إلى كل العبيد الذين تحولوا من الوثنية إلى المسيحية، بسبب ارتباطهم بسادتهم المسيحيين. وكان كثير من معارضى الرق يعتقدون أنه لعنة على السيد والعبد سواء بسواء».

كانت رواية هاربيت بيشر ستو، وهى أول رواية تكتبها كاتبة أمريكية على الإطلاق، قد أثارت ضجة عندما نشرت على حلقات، وفى النهاية صارت الأفضل مبيعًا فى أمريكا القرن التاسع عشر. ووصف لنكولن لها بأنها السيدة الصغيرة يشى بالمزيد عن موقفه تجاه نجاح الأنثى أكثر من موقفه إزاء حجمها الجسدى أو قامتها. وباستثناء السيناريوهات المتوقعة عن الحب الرومانسى وتضحية المرأة بنفسها، لم يكن متوقعًا من الكاتبات النساء فى أمريكا أن يخضن فى موضوعات خطيرة، على الرغم من أنه على مدى أكثر من قرن كانت النسوة على قمة الفضاء الأدبى فى انجلترا (مع أنه فى حالة أعظم كاتبة بينهن، وهى مارى آن إيفانز، كانت تكتب تحت اسم مستعار ذكورى هو چورچ إليوت). ومع هذا فإن رواية ستو العاطفية عن الرق والحرية كان لها تأثير كبير بالقدر الذى جعلها تحفز المشاعر فى الشمال بحيث ترفض اتفاق ١٨٥٠م، ليس فقط بسبب الشرط الوارد فيه بأن العبيد الذين يفرون إلى الشمال تجب إعادتهم إلى أسيادهم. ولم تكن ستو تعترض على الرق بالمعنى الأخلاقى السائد اليوم. ولم تتحدث عن حقوق الإنسان. وفى تناولها لشخصية رئيسية فى الرواية، وهو العبد چورچ هاريس، حسبما تشرح آن دوجلاس:

«ما كان يهم ستو أكثر فى چورچ هاريس لم يكن ما إذا كان أو لم يكن له حق الهرب (ومن الواضح أنها كانت تؤمن أن من حقه أن يهرب) أو حتى إذا ما كان ينبغى له أن يعود إلى أفريقيا أم لا. أما ما كان يشغلها أكثر فهو إذا كان الظلم الذى ناله بهذا القدر من العنف، سيجعل من المستحيل عليه أن يؤمن بأى شكل بالرب الذى يؤمن به أسياده نظريًا، وإذا ما رفض المسيحية فما هو الشىء الذى سيعيش من أجله وكيف؟. لأن أكبر تهمة وجهتها ستو ضد الرق هى أنه سوف يقتل الروح داخل العبيد....».

لقد كان اهتمامها اهتمام مبشر وقس، وليس اهتمام أحد المشاركين فى حملة

من أجل الحقوق المدنية. ولكن أيضا، بمعنى دينى، أنها وطنية أمريكية. وهى فى الصفحة الختامية من روايتها تنحى جانبا ما تتفق عليه الروايات الخيالية فى منتصف القرن التاسع عشر وتعتلى منبر الوعظ. إذ كانت تؤمن، كما تقول دوجلاس؛ بأن الرب سوف يوقع العقاب جزاء الرق على أساس من النص الوارد فى إنجيل متى (١٨ : ٧):

«ويل للعالم من العثرات. فلابد أن تأتى العثرات. ولكن ويل لذلك الإنسان الذى به تأتى العثرة».

وبسبب كل ما تحمله رواية «كوخ العم توم» من أهمية سياسية، فلا غرابة فى أنه صار من الشائع، حسب النقد الأسود الحديث، استبعاد هذه الرواية باعتبارها صورة مهينة للناس السود. وبالنسبة لدى بوا، الكاتب الأسود المشهور ومؤسس الرابطة الوطنية لتقدم الملونين، كان الضرر الذى سببته الروحية السوداء الخانعة ضرراً أساسيا.

«**هذه الجبرية الدينية العميقة، التى تم تصويرها بصورة جميلة للغاية فى رواية العم توم، سرعان ما صارت، مثل كل العقائد القدرية، تربى الشهواتى مثلما تربى الشهيد. وفى ظل الحياة الأخلاقية المسترخية فى المزرعة، حيث الزواج أضحوكة، والكسل فضيلة، والملكية سرقة، كان من السهل أن تؤدى إلى ديانة قوامها الانسحاب والخضوع، وفى العقول الأقل نشاطًا إلى فلسفة للتساهل والجريمة. وكثير من أسوأ خصائص الجماهير الزنجية اليوم كانت بذرتها فى تلك الفترة التى شهدت النمو الأخلاقى للعبد. هنا حدث تخريب للوطن تحت ظل الكنيسة...**».

هذا الاعتراض يركز اهتمامه على شخصية توم نفسه، الذى صورته الرواية مؤدبا، مثل الأطفال مطيعًا وسلبيًا، بل حتى مستكين فى وجه تجاوزات القوة والظلم. وفى نهاية الكتاب، وهو يموت ألما بعد جلده جلدًا مبرحًا بالسياط، يسامح توم مالكه الأبيض ومعذبه، ويرى المسيح فى رؤيا. ويفترض النقاد السود المحدثون أن ستو تحث هذه الروح التسامحية عند السود حينذاك والآن - التسامح حتى قبل أن يقبل البيض الاعتراف بأنهم فعلوا شيئا يستحق التسامح.

وتقترح آن دوجلاس أن هذا لم يكن قصدها، على الرغم من أنها ربما لا تعطى

وزنًا كاملاً للمغزى اللاهوتي لمقاربة ستو؛ إذ إنها تعمل داخل منظومة أخلاقية كالڤينيه لكي تصور العبد توم في صورة واحد من المقدر لهم أن يكونوا من المختارين، أو قديس (بالمصطلحات الكالڤينية) الذي يضمن مكانه في السماء. وحضور المسيح عند فراش موته ربما لم يكن يعني شيئا سوى هذا. وكانت فكرة أن السود يمكن أن يكونوا بين الشعب المختار بحد ذاتها نقطة قوية ضد العنصرية، وتحدت الافتراض الشائع بين الكالڤينيين الشماليين بأن العهد الذي عقده الرب كان مع الجنس الأبيض وحده. كان هذا موضوعًا حيًا: ففي سنة ١٨٥٧م وفي قضية دريد سكوت الشهيرة حكمت المحكمة العليا بأنه لا العبيد ولا السود الأحرار يمكن أن يكونوا مواطنين أمريكيين. كانت واعية - وقالت هذا في كتابها - أن العنصرية في الشمال كانت جزءًا من مشكلة العدل إزاء السود في أمريكا، مثلما كانت العبودية جزءًا من المشكلة في الجنوب تمامًا. واقتربت ستو من القول بأن توم كان شبيهها بالمسيح، بيد أن هذا كان أقرب إلى الفهم الكاثوليكي للقداسة - وهو نوع من التمييط لم تكن پروتستانتية مثل هذه الكاتبة على ألفة به.

كانت الطريقة التي مات بها المسيح على الصليب (حسب الاعتقاد المسيحي) تتسم بالخضوع، والطاعة لمصيره، والتسامح إزاء من حكموا عليه وأعدموه. ومنذ ذلك الحين واجه كثير من الشهداء المسيحيين الموت في عملية تقليد للمسيح، محاولين أن يخلقوا في أذهانهم من جديد الحالة الذهنية والروحية التي أظهرها المسيح - أي القبول بقدر ومصير لا يمكن تغييره. ولكن لم يكن من المفترض أبدًا أن هذا يعني أنه كانت هناك طريقة واحدة فقط للموت تناسب الفرد المسيحي. وأولئك الذين انتقدوا ستو، على أساس أن تصويرها لموت توم كان في واقع الأمر بمثابة نصح لكل السود العبيد بأن يعيشوا ويموتوا بطريقة سلبية ومتسامحة مثل هذه الطريقة التي مات بها توم - أولئك أساءوا فهم اللاهوت الذي كتبته. «لقد مات توم حتى يمكن للآخرين أن يعيشوا»؛ لأنه رفض أن يخون أصدقاءه. وكان من حق ستو أن تجادل بأنه من المسموح للمسيحيين في ظروف أخرى ألا يموتوا لمثل هذا السبب، وإنما يمكن لهم أن يقتلوا لسبب مثل هذا. فالغضب الحق ليس ضد المسيحية. وبعبارة أخرى، فإن هذا ليس دفاعًا عن المسالمة أو الخضوع في مواجهة الشر كشر.

ومع هذا فإن الغموض الذى يعترى السرد ـ وهو الذى أتاح لناقديها الفرصة ـ كان من فعلها، ولم تقل ما يكفى لتبديده. وأجيال من السود كانوا يتلقون النصح حتى من زعمائهم ورعاتهم الكنسيين بعدم التمرد ضد المعاملة السيئة، على حين أن المقاومة المحسوبة لهذا، ربما كانت خدمتهم بصورة أفضل على المدى الطويل. ولذا فإن الميراث الدائم لرواية ستو لم يكن الاعتراف العالمى بإسهامها الفريد فى إنهاء الرق، وإنما تمثل فى الاستخدام المحط «للعم ترم» باعتباره نمطًا للأسود الخانع المؤدب المتسامح، والذى يفتقر إلى الشجاعة أساسًا، والذى هو ضحية للرق، وهو نوع من النموذج تعلم المجتمع الأسود فى أمريكا أن يحتقروه وهم محقون فى هذا تمامًا. وسيحتاج هذا إلى مزيد من الدراسة حينما نتدبر التجربة السوداء الحقيقية فى النضال ضد العنصرية والعبودية، بدلاً من تخيل البيض لها، ولاسيما التنميط القوى والمحرك للجماعة السوداء الأمريكية، باعتبارها صورة أخرى من شعب الله المختار. ولم تكن الصورة المفضلة صورة العم توم «الخادم الذى يعانى»؛ وإنما كانت صورة العبيد السود كقبيلة بيعت فى رق العبودية تحتاج إلى واحد منهم يقودها خارج مصر إلى الأرض الموعودة.

وكانت ستو غافلة عن هذا كله؛ إذ إنها طعمت قصتها بتحذير رصين إلى أمريكا البيضاء ـ التى كانت ما تزال هى شعب الله المختار فى عينيها ـ من مصيرها المحتمل، فى مصطلحات تتوقع بشكل مدهش، بل هى نبوءة فى الواقع، بالحرب الأهلية المرعبة التى وقعت بعد أقل من عقد من الزمان:

«هذا زمن ترتعش فيه الأمم وترتج. وثمة تأثير عظيم فى الخارج؛ مما أدى إلى إثارة العالم ودفعه، مثلما يحدث فى الزلزال. وهل أمريكا آمنة؟ وكل أمة تحمل فى صدرها ظلما كبيرًا، فى داخلها عناصر هذا الارتجاج الأخير».

يا كنيسة المسيح، إقرئى علامات الأزمنة! أو ليست هذه القوة هى روح الرب الذى لم تأت مملكته بعد، والذى ستنفذ مشيئته على الأرض كما هى فى السماء؟.

ومن يثبت عند ظهوره. لأنه مثل نار المحمص... وأكون شاهدًا سريعًا على السحرة والفاسقين وعلى الحالفين زورًا وعلى السالبين أجرة الأجير، الأرملة

واليتيم. . . »، . . . لأنه هو ذا البعداء عنك يبيدون»(*) «أو ليست هذه كلمات مرعبة لأمة تحمل في صدرها مثل هذا الظلم الفادح؟ أيها المسيحيون، في كل مرة تصلون فيها لكي تأتي مملكة المسيح، هل يمكنكم أن تنسوا أن النبوءة تربط يوم الحساب بيوم خلاص الرب على نحو رهيب؟

ومع هذا فإن أمامنا يومًا مهلة يعرضه الرب علينا. إذ إن كلا من الشمال والجنوب قد أذنبا أمام الرب؛ وعلى الكنيسة المسيحية أسئلة كثيرة تستوجب الإجابة، ليس بالاندماج سويًا لحماية الظلم والقسوة، ويعمل رأس مال مشترك من الخطيئة، يمكن إنقاذ هذه الأمة - وإنما بالتوبة، والعدل والرحمة؛ لأن القانون الخالد الذي يجعل حجر الطاحونة يغوص في المحيط ليس مؤكدًا أكثر من القانون الأقوى القائل بأن الظلم والقسوة يجلبان على الأمم غضب الرب العظيم!».

كانت اقتباساتها من النصوص المقدسة مأخوذة من سفر النبي ملاخي، واستكملت بعبارة من المزمور الثالث والسبعين. ولكي نقدم السياق الذي لابد وأن قراءها البروتستانت كانوا سيدركونه في الحال، يستحق الأمر منا أن نقدمه هنا كاملاً. وهذا على أية حال، إذا كان الرئيس لنكولن محقًا، هو النص الرئيسي في الكتاب الذي تسبب في نشوب الحرب التي ألغت الرق. وفي هذه النسخة الموسعة، يصبح الاقتباس من سفر ملاخي واضحًا كتهديد من الرب بأن يدمر أمة تخون التزامها بالميثاق. وفي بلد كانت تعتبر الحماية الخاصة من الرب بمثابة مفتاح لماضيها وحاضرها، فإن هذا يكون تحذيرًا وخيمًا بقدر ما هو ممكن الوقوع. ونبوءة ستو بالعقاب الإلهي الوشيك كانت أيضا ستعزز من تردد الشمال في القبول بمطالب الجنوب في الاستقلال، حينما صارت خلافاتهما بشأن الرق غير قابلة للتسوية. و«ترك الجنوب يذهب» ربما كان سيحل المأزق السياسي، ولكنه لم يكن ليؤجل حكم الرب. وبالمثل، ففي هذا الضوء يمكن تفسير القتال «لإنقاذ الاتحاد» ليس كمجرد محاولة لمنع انقسام الولايات المتحدة إلى قسمين. فقد كان أيضا قتالاً لإنقاذ

(*) هذا نص مركب من عبارات سفر ملاخي الإصحاح الثالث، والمزمور ٧٣ استخدمته كاتبة النص الذي أورده المؤلف بصورة تضمينية في كتابها. ورأيت أن أثبته هكذا دون تصرف حتى لا يفسد النص - المترجم.

الاتحاد من غضب الرب ـ أي الخلاص بالمعنى الديني الصارم. ففي المزمور الثاني والسبعين (١ ـ ٤):

«اللهم أعط أحكامك للملك وبرك لابن الملك. يدين شعبك بالعدل ومساكينك بالحق. تحمل الجبال سلامًا للشعب والآكام بالبر. يقضي لمساكين الشعب. يخلص بني البائسين ويسحق الظالم».

وفي ملاخي (٣: ١ ـ ٧):

«ها أنذا أرسل ملاكي فيهيء الطريق أمامي ويأتي بغتة إلى هيكله السيد الذي تطلبونه وملاك العهد الذي تسرون به هو ذا يأتي قال رب الجنود. ومن يحتمل يوم مجيئه ومن يثبت عند ظهوره. لأنه مثل نار الممحص ومثل أشنان القصّار. فيجلس ممحصًا ومنقيًا للفضة فينقي بني لاوي ويصفيهم كالذهب والفضة ليكونوا مقربين للرب تقدمة بالبر. فتكون تقدمة يهوذا وأورشليم مرضية للرب كما في أيام القدم وكما في السنين القديمة. واقترب إليكم للحكم وأكون شاهدًا سريعًا على السحرة وعلى الفاسقين وعلى الحالفين زورًا وعلى السالبين أجرة الأجير الأرملة واليتيم ومن يصد الغريب ولا يخشاني قال رب الجنود. لأني أنا الرب لا أتغير فأنتم يا بني يعقوب لم تفنوا.

من أيام آبائكم حدتم عن فرائضي ولم تحفظوها. ارجعوا إليّ أرجع إليكم قال رب الجنود. فقلتم بماذا نرجع».

وجاء في سفر ملاخي (٤ : ١ ـ ٦):

«فهو ذا يأتي اليوم المتقد كالتنور وكل المستكبرين وكل فاعلي الشر يكونون قشًا ويحرقهم اليوم الآتي قال رب الجنود فلا يبقى لهم أصلاً ولا فرعًا.

ولكم أيها المتقون اسمي تشرق شمس البر والشفاء في أجنحتها فتخرجون وتنشأون كعجول الصيرة. وتدوسون الأشرار لأنهم يكونون رمادًا تحت بطون أقدامكم يوم أفعل هذا قال رب الجنود:

اذكروا شريعة موسى عبدي التي أمرته بها في حوريب على كل إسرائيل الفرائض والأحكام.

«أننا أرسل إليكم إيليا النبى قبل مجىء يوم الرب العظيم والمخوف فيرد قلب الآباء على الأبناء وقلب الأبناء على آبائهم لئلا آتى وأضرب الأرض بلعن».

وإذا ما استبعدنا الكتب المعروفة بالأبوكريفا(*)، فإن هذه الكلمات التى أوردها سفر ملاخى فى الإصحاح الرابع هى آخر كلمات العهد القديم. وبطبيعة الحال كانت ستو تتكلم من داخل تراث كان غائصًا فى الكتاب المقدس؛ إذ إنها، بل والأهم أولئك الذين قرأوا كتابها، كانوا يعيشون جميعا أثناء فترة من التوقعات الدينية العالية ارتبطت بالصحوة الدينية الكبرى الثانية، وهى حركة إحيائية اجتاحت أمريكا من نيوإنجلاند فى النصف الأول من القرن التاسع عشر. وقد تطور شكلها الرئيسى إلى ظاهرة اجتماع المعسكر، أى تجمع الأهالى المحليين حول مبشر رَحّال تحتوى مواعظه وخطبه على الكثير من الكلام عن نيران الجحيم والترانيم الجذابة. وقد أدت اجتماعات المعسكر والحميمة الإحيائية التى نتجت عنها إلى تنصير كثير من العبيد للمرة الأولى، وكان التحسن الأخلاقى الذى بدا من تداعيات هذا، قد راق فى عيون ملاك العبيد المحليين. وكتبت ستو أن العم توم نفسه قد اعتنق المسيحية فى أحد اجتماعات المعسكر. وقد نشرت الصحوة الثانية المذهب الإنجيلى من طراز نيوإنجلاند فى الجنوب والغرب الأوسط، وهى المناطق التى عرفت فيما بعد باسم «حزام الكتاب المقدس». وإحدى النتائج الجانبية للمناخ الدينى بالغ السخونة الذى انتجته الصحوة الثانية تمثل فى ظهور أنواع من التبشير الطائفى الصارم لدى عدة طوائف تعتمد على القراءة الألفية، بل وشديدة الحرفية للكتاب المقدس. وكان أكثرهم تمايزاً طائفة المورمون بكتابهم المقدس الخاص (سفر المورمون) وأعادوا إحياء الممارسة الإسرائيلية القديمة فى تعدد الزوجات. ولم يكونوا هم الوحيدين الذين أصروا على أن خلاص العالم سوف يأتى من خلال الجنس الأنجلو-سكسونى «المختار».

كذلك أعطت الصحوة الثانية قوة دافعة لحركة إلغاء الرق، على الرغم من أن بعض المؤرخين يرى بأن بعض آثارها كانت آخذة فى الشحوب فى وقت عقد اتفاقى

(*) هى الأسفار التى لم يعترف بأنها ضمن أسفار الكتاب المقدس، وكلمة أبوكريفا تعنى المزيفة أو المزورة. وقد استبعدت المجامع الكنسية هذه الأسفار فى زمن باكر -المترجم.

سنة ١٨٥٠م. وقد شعرت ستو نفسها بأنها بحاجة إلى أن تبدأ من جديد، وكان هذا هو السبب فى أنها ألفت روايتها. بيد أن تأثيراً أشد ثباتًا وأطول استمراراً جاء عن طريق غير مباشر بنفس القدر. وتمامًا مثلما قيل إن الصحوة الأولى قد شجعت المثل الجمهورية فى السنوات التى سبقت حرب الاستقلال، كذلك فإن الصحوة الثانية اعتبرت وكأنها أرست بعض الأسس الأيديولوجية التى أدت إلى الحرب الأهلية.

وكما لاحظنا بالفعل، هناك توتر داخل المسيحية، سواء البروتستانتية أو الكاثوليكية، بين الخلاص باعتباره أملاً وإنجازاً للجماعة المسيحية بأسرها - بحيث يتم خلاص الأفراد لكونهم أعضاء فى هذه الجماعة - والخلاص باعتباره مسألة فردية، خارج الجماعة، بل حتى على الرغم منها. ويتمثل الخطر الروحى للشكل الأول فى أن الأفراد يخضعون لإغراء التساهل، تاركين مسألة الخلاص لعمل الجماعة. وكانت الصحوة الكبرى الثانية موجهة إلى السبات الروحى الجماعى المزعوم الذى انغمس فيه الناس، ودعتهم إلى أن يستيقظوا فرادى، ولا ينتظروا الجماعة من حولهم. وصار هذا التأكيد على الفردية، نتيجة الصحوة الثانية وانتصار الشمال البروتستانتى، علامة ثابتة من معالم الشخصية الأمريكية. بيد أنها لم تتطور إلى معارضة لفكرة أن الشعب الأمريكى، باعتباره جماعة مسيحية، له خصوصية فى نظر الرب، حسبما كان متوقعًا؛ إذ إن رفع الفرد قد حمل الجماعة بأسرها إلى أعلى معه.

بيد أن هذه مرة أخرى هى بالضبط رؤية العهد القديم. فقد كان الوعد الممنوح من خلال إبراهيم وعداً جماعيًا، كما أن الإنقاذ الذى تم تأمينه من خلال موسى كان إنقاذاً جماعيًا. وفى صوت كاتب المزامير تعنى كلمة ربى بالضبط عبارة رب إسرائيل، ربنا. والحركة ذهابًا وإيابًا بين «أنا» و«نحن»، الفرد والمجموع، هى إحدى خصائص المزامير. والمزمور الخامس خير مثال على ذلك. فهو يفتتح، مثل معظم المزامير، بالمفرد، بالفرد ينادى الرب العظيم طلبًا للمساعدة:

«لكلماتى أصغ يارب. تأمل صراخى. استمع لصوت دعائى يا ملكى وإلهى لأنى إليك أصلى. يارب بالغداة تسمع صوتى. بالغداة أوجه صلاتى نحوك وأنتظر» (مزامير ٥ : ١ - ٣).

ولكن هذا المزمور ينتهى فى صيغة الجمع :

«ويفرح جميع المتكلين عليك . إلى الأبد يهتفون وتظللهم . ويبتهج بك محبو اسمك . لأنك أنت تبارك الصدّيق يارب . كأنه بترْس تحيطه بالرضا» . (مزامير ٥ : ١١ـ١٢) .

ولكن فى نهاية الأمر ، لايمكن التوفيق بين هذين الاتجاهين . ويمكنهما فقط أن يتعايشا فى حال من التوتر ، سواء التوتر الهدام أو التوتر الخلاق . وفى حالة ويلبرفورس وستو ، فإن استقامة الفرد ستؤدى فى النهاية إلى استقامة الجماعة بأسرها . وهناك أيضا أمثله دالة على العكس : حيث نجد أن مصير الجماعة المستقيمة قد تم خذلانه ـ وسحبه إلى أسفل ـ بسبب السلوك المعوج للأفراد . وأحد الأمثلة هو فشل تجربة أوليفر كرومويل فى «الحكومة بواسطة القديسين» ، خلال فترة منتصف القرن السابع عشر للكومنولث الإنجليزى (تسمى أحيانًا الحماية) . فقد أراد كرومويل أن يتوج ثورته البيوريتانية بتسليم السلطة السيادية إلى مجلس دولة ، أطلق على نفسه فيما بعد اسم البرلمان ، وهو لقب مده ناقدوه فيما بعد إلى ما يسمى Barebones Parliament ، وبما أن الدولة كانت مسيحية ، كان لابد للمجلس أن يكون كذلك . وكان كرومويل قد استدعى حوالى مائتين من أصحاب الاستحقاق ، ممن كان يفترض أنهم يتمتعون بمؤهلات بيوريتانية خالصة النقاء ؛ وخاطبهم سويا . وأخبرهم أن تسلمهم السلطة إنما هو ذروة المهمة التى قام بها .

«وأعلن حقا أن الرب استدعاكم لتحكموا معه ومن أجله . إننى أعترف أننى لم أتطلع أبدًا لأن أرى يومًا مثل هذا ـ وربما لم تتطلعوا أنتم أيضا لرؤيته ـ حين يكون المسيح قريبا كما هو اليوم ، وفى هذا العمل . . . وقد يكون هذا هو الباب الذى يقودنا إلى الأشياء التى وعد بها الرب ، والتى تم التنبؤ بها ، والتى فطر قلوب الناس على أن ينتظروها ويتوقعوها . . . إنكم على حافة التنبؤات والوعود» . ومن الواضح أن كرومويل كان يشعر بأن الوقت قد حان لأن يعلن وصول الألفية ـ أى عودة المسيح (أو المجىء الثانى) وبداية حكمه الذى يمتد ألف سنة . واستقامة الأمة الإنجليزية ، الشعب المختار ، كانت على وشك أن تصير مضمونة إلى الأبد . وكانت النظرية ، بنفس القدر من الوضوح ، أن استقامة الأمة سوف تجعل الشعب مستقيمًا ،

مثل الأفراد. (وكلمة مستقيم فى هذا السياق تعنى الأبرار، الذين نالوا الخلاص، تعنى أيضا الطاهرين أخلاقيًا). ولكن النظرية لم تنجح، ولم تصل الألفية، وبدلاً من الجماعة التى تشد الأفراد إلى أعلى، سحب الأفراد الجماعة إلى أسفل. فقد تكررت قصة آدم القديم. وبرزت الفرق والعصب المتنافسة، المحافظون على جانب، والراديكاليون على الجانب الآخر؛ والاقتراحات بإلغاء عشور الكنائس وبوقف الدفع للجيش، لقيت مقاومة قوية من أصحاب المصالح الراسخة. وشعرت طبقة الأعيان أن حقوق الملكية عرضة للخطر. وبعد خمسة شهور تفرق البرلمان - تجربة انجلترا الوحيدة فى حكم دينى كلى - وتم حله. وحكم الألف سنة للمسيح لم يتم تأجيله إلى أجل غير مسمى فقط؛ إذ إن كروموبل تخلى عن الفكرة برمتها تحت وطأة خيبة أمله العميقة.

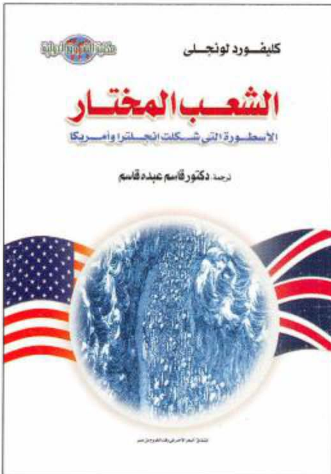
وبعض مؤرخى المذهب البيوريتانى، ومن بينهم بيركوفيتش وكريستوفر هيل، يتعاملون مع تخلى كروموبل عن الاعتقاد فى أن الأمة الإنجليزية، كما هى، كانت قادرة على أن تصير مملكة المسيح كما لو كان يعنى أن كل الأفكار عن كون انجلترا مختارة، قد طرحت خارج الأجندة منذ ذلك الحين فصاعداً. ويعترف بيركوفيتش بأن إعادة شارل الثانى بعد موت كروموبل تم ربطها، بطريقة تنميطية، بإنقاذ موسى الشعب المختار من عبودية فرعون فى مصر. وهذا على أقل تقدير كان دفعًا للأمور بأكثر مما تحتمل، حتى على الرغم من أن الانعتاق من قبضة البيوريتانية لابد أنه ولد شعوراً بالتحرر آنذاك. بيد أن هذه كانت أنجليكانية الدولة أكثر منها تنميطًا بيوريتانيا - بروتستانتيًا، ولم تكن تحمل المضامين الألفية والمتعلقة بنهاية العالم (حسب سفر الرؤيا) التى كانت تحملها الفكرة فى السابق؛ إذ إن شارل الثانى قاد الشعب المختار من عبودية الاستقامة إلى حرية الانفلات: وهو نوع من الخروج مثير للسخرية حقًا.

* * *

الفهـــرس

رقم الإيداع
٣٩٤٠ / ٢٠٠٣
الترقيم الدولى .I.S.B.N
977- 09- 0932-7

مطابع دار الطباعة والنشر الإسلامية
العاشر من رمضان المنطقة الصناعية ب ٢ - تليفاكس : ٣٦٣٣١٤ - ٣٦٢٣١٣
مكتب القاهرة : مدينة نصر ١٢ ش ابن هانيء الأندلسي ت : ٤٠٢٨١٣٧ - تليفاكس : ٤٠١٧٠٥٣



مكتبة الشروق الدولية